جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

البلاغة النبوية
في
استخدام معطيات البيئة الحسية
كوسائل تعليمية
(دراسة في كتب السنة)

الدكتور

ناصر راضي الزهري إبراهيم

الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية بأسيوط– جامعة الأزهر
الأستاذ المساعد في كلية الآداب والعلوم
جامعة سلمان بن عبد العزيز

١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م

العدد التاسع عشر

للعام ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

الجزء الأول

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٥م

الترقيم الدولي : ISSN 2356 ■ 9050

تم دعم هذا المشروع بواسطة عمادة البحث العلمى لجامعة سلمان بن عبد العزيز من خلال المقترح البحثى رقم

٢٠١٤/٠٢/٢٣٠٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

البلاغة النبوية في استخدام معطيات البيئة الحسية كوسائل تعليمية
دراسة في كتب السنة
المقدمة

نحمد الله – تعالى – عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، ونشهد أن لا إله إلا هو، وأن محمدًا عبده ورسوله، ونصلي عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ..وبعد

فإن مشكلات التعليم والتواصل مع الآخرين تتمثل في تبليغ المعاني المقصودة لأفراد، أو مجموعات بينها تفاوت في درجة الفهم والاستيعاب، وتحتاج إلى وسائل مختلفة لإتمام عملية التوصيل .

هذه الوسائل قد تتوفر لبعض الناس، ولا تتوفر للآخرين، وقد تنجح في تحقيق الغرض، وقد لا تنجح في تحقيقه .

والرسول –ﷺ–قد عالج في أساليبه المشكلتين ببساطة شديدة، ودقة عالية حيث استخدم مقومات البيئة المعروفة للجميع في التنبيه للمعاني قبل تبليغها، وتقريرها في أثناء ذكرها، وتثبيتها بعد تقريرها لارتباطها في الذهن بأشياء محسوسة، وقد قرر علماء النفس أن ارتباط المعلومات بأمور مقارنة لها في الفكر تجعلها أبقى على الزمن، وأثبت في النفس، فلا بدع أن يكون ما ذكرنا داعيًا من دواعي حفظ الصحابة لسنة رسول الله –ﷺ–لأنهم هم المشاهدون لتلك الوقائع المشافهون بكلام سيد الخلق في هذه المناسبات الملائمة[1].

وإن حصر هذه الطرق والوسائل وتطبيقها في المجال التعليمي يحقق الفوائد المرجوة من العملية التعليمية مع توفير المال والجهد والوقت .

---

(١) ينظر مناهل العرفان في علوم القران للشيخ/ محمد عبدالعظيم الزرقاني ج:١/ص ٢٥٣ت: أحمد بن على / ط: دار الحديث / سنة : ١٤٢٢/٢٠٠١ م.

ومن المنطقي أن يكون المرجع في أي مسألة من المسائل هو أبرع من تخصص فيها، ومن الراسخ في عقيدتنا أن الرسول -ﷺ-هو المعلم الأعظم،وقد كان النموذج الأعظم في كل مجال والنتائج التي حققها في مجال التربية، والتعليم فاقت كل ما حققته النظريات التعليمية القديمة والحديثة.

وكتب السنة زاخرة بالطرق البارعة في التعليم والشرح والتوضيح ، وقد استخدم الرسول -ﷺ-بعبقرية وبراعة كل معطيات البيئة التي تسهم في توصيل المعلومات وتوضيح المبهمات وتثبيت المقررات .

فقد استخدم الحصى والرسم والخط وفروع الأشجار والثمار واستخدم الاستفهام ، والمثل والتشبيه ومختلف ألوان التصوير لما حوله من مظاهر الطبيعة لتبليغ ما أوحي إليه ولتعليم الناس وتحقيق استراتيجيات الإقناع .

وهي وسائل متاحة بسيطة لكنها قوية الأثر عميقة الدلالة ، إذا أحسن المتكلم توظيفها ، ومن الأهمية بمكان الاستفادة من هذه الطرق التي سخَّرت معطيات البيئة البسيطة ، والمعقدة في العملية التعليمية، وحققت أعظم نتائج على مر التاريخ، فقد استطاع أن يجمع قبائل متفرقة ، ويهذب أخلاقًا جافية ، ويبني أمة قادت الأمم من غياهب الجور إلى دروب النور، وصنع من أفرادها نماذج قادت البشرية في كل مجالات الحياة .

ويسعى هذا البحث إلى جمع هذه الطرق النبوية، وعرضها، وشرحها،وتقديمها للمعلمين، والدعاة والمصلحين، والباحثين حتى يحققوا الاستفادة من معطيات البيئة حولهم في التوضيح والتقرير والتعليم دون كلفة قد لا تتوفر لأكثرهم.

كما يكشف جانبًا من البلاغة النبوية في هذا المنحى الدقيق الذي يتميز بقوة الأثر وعمومه وعمقه، ويهدف البحث إلى الخروج بدراسة علمية في كتب السنة عن بلاغة الرسول -ﷺ-في استخدام الوسائل الحسية كوسائل تعبيرية في العملية التعليمية، وكيف وظفها في المقامات المختلفة لتحقيق الإنصات قبل العملية

التعليمية ، وتثبيت المعنى بعد تمامه، وتقريره، وتوضيحه فيما بينهما،كما يسعى إلى تحقيق مجموعة من الأهداف منها :

١- عرض الطريقة النبوية في استخدام الوسائل الحسية في تقرير المعاني .

٢- كيفية توظيف النبي -ﷺ-لمقومات البيئة في إتمام العملية التعليمية .

٣- دراسة طرق النبي -ﷺ-لتقرير المعاني في المقامات المختلفة مع اختلاف الأفهام وتفاوت الناس في درجات الفهم والاستيعاب .

٤- تنبيه المعلمين، والدعاة، والمصلحين إلى المنهل النبوي عند البحث عن وسائل تربوية، وتعليمية تحقق مقاصدهم .

٥- توظيف الأفكار النبوية في المجالات العملية لتحل محل النظريات الغربية التي قد لا تصلح لقيمنا وديننا .

٦- كشف ما أمكن من مظاهر البلاغة النبوية في إطار استخدام مقومات البيئة الحسية كوسائل تعبيرية .

وتبدو قيمة هذا الموضوع من جهتين: الأولى:من شرف مادته حيث إنه يدرسأحاديث الرسول-ﷺ-في كتب السنة، والثانية : طرافة الموضوع وجدّته حيث إنه يتناول بلاغة الرسول -ﷺ-في شيء خاص وجانب لم يطرقه الدارسون للبلاغة النبوية على كثرتهم وعلى كثرة الدراسات البلاغية التي تناولت البلاغة النبوية ،وهو بلاغة توظيف مقومات البيئة الحسية كوسائل تعبيرية ، وتعليمية لتقرير المعاني، وتثبيتها، ومن تعرض لدراسة هذه الوسائل تعرَّض لها في أثناء دراسة غيرها من الموضوعات،ولم تفرد لها دراسة خاصة حتى الآن تجمع ما تفرق عند العلماء وتتدارك ما فاتهم، وهو ما تطّلع به هذه الدراسة وهو سبب تفردها .

منهج البحث .

تقتضي طبيعة البحث القائم على التحليل،والدراسة، والوصف استخدام عدة مناهج بحثية لتحقيق ما يسعى إليه من أهداف؛ فيستخدم منهج التحليل البلاغي الذي يقوم بتحليل النصوص للوصول إلى مضمونها من جهتين :

الأولى : من جهة الطريقة . الثانية : من جهة الأثر ، كما يستخدم المنهج الوصفي الذي يصف الأسلوب النبوي في استخدام الوسائل التوضيحية، وكيف يوظف عناصر البيئة، في تقرير المعاني، وتوضيحها، وتثبيتها في الأذهان .

وكذا يستخدم المنهج التاريخي الذي يتتبع تطور المنهج النبوي بحسب الحاجة في استخدام الوسائل الحسية كوسائل تعبيرية في العملية التعليمية لاختلاف طبيعة المتعلمين ، وأفهامهم ، وأزمانهم ، وأماكنهم .

خطة البحث: أولًا : المقدمةوفيها : أهمية الموضوع . – أهداف البحث . – منهج البحث . خطة البحث .

ثانيًا : المبحث الأول: هيئة المعلم ودورها في العملية التعليمية وكيفية استثمارها .

ثالثًا : المبحث الثاني : استخدام الخط والرسم في التعليم والتواصل .

رابعًا : المبحث الثالث: استخدام الحيوان والطير، وأعضاء جسم الإنسان في التعليم .

خامسًا: المبحث الرابع: استخدام الأرض والحصى والمعادن والنبات والكواكب في التعليم.

سادسًا: المبحث الخامس:استثمار المواقف الطارئة من الوسائل النبوية في التربية ، والتعليم.

سابعًا: المبحث السادس:استخدام القصة كوسيلة تعليمية وتربوية .

ثامنًا : المبحثالسابع:استخدام الاستفهام في التعليم والتربية .

تاسعًا : المبحثالثامن: استخدام التشبيه للتعليم والتوضيح .

عاشرًا : المبحث التاسع :من الوسائل المساعدة في العملية التعليمية في السنة النبوية

حادي عشر : الخاتمة .ثاني عشر : الفهارس .

(هذا ويتقدم الباحث بخالص الشكر لجامعة سلمان بن عبد العزيز لدعمها المادي للبحث بالمشروع رقم ٢٣٠٦/٠٢/٢٠١٤ م) .

المبحث الأول
هيئة المعلم ودورها في العملية التعليمية وكيفية استثمارها

الأساليب النبوية في التربية والتعليم هي أدق الأساليب، وأنسبها في سياسة النفوس، وتحقيق تهذيبها ورقيها، والوصول بها إلى الغاية المنشودة في العلم، والمعرفة التي تحقق عمارة الدنيا والآخرة .

وهذه النظرة الشاملة للغايتين لا يحققها إلا المنهج النبوي ؛ لأن مجمل النماذج البشرية في التعليم والتربية هدفها تحقيق المنفعة الدنيوية المحدودة في تحقيق الرفاهية للإنسان فيشهواته ورغباته المادية ، وبذلك يبقى في النفس فراغ لا يملؤه شيء .

بينما يرتكز جوهر مهمة النبي بمنهج الإلهي في تطهير النفس، وتعليمها قال -تعالى - : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)(الجمعة: ٢).

كما أن الأساليب البشرية من وضع خبراء من البشر لهم قدرات محدودة في الزمان والمكان والعلوم والمعارف، ومهما بذلوا من جهد، فإن عملهم لا يخلو من قصور سرعان ما يتعرى؛ فيعيدون الكرة في محاولة للبحث عن أساليب جديدة لتحقيق الغرض المنشود .

أما الأساليب النبوية فهي بسبيل الوحي الذي جاء بمنهج إلهي لا يعتريه نقص في أي زمان، أو مكان، ولا يشوبه خلل ولا قصور في نتائجه إلا إذا وقع خطأ في تطبيقه .

وقد أعد الله – عز وجل – نبيه -ﷺ- للمهمة التي اصطفاه من أجلها، وهي تبليغ شرعه لكل البشر في كل زمان ، ومكان، وهي مهمة ثقيلة شديدة التعقيد لاختلاف الناس في الأفهام واللغات والعادات والأزمنة ، وقد توفر له من أسباب البلاغة ما لم يتوفر لغيره بالإضافة إلى ما حباه الله به من مكاشفة لأسرار اللغة وكشف

لبواطن من يخاطبهم ، والتجربة التي خاضها الرسول -ﷺ-بمنهجه في التقويم والإصلاح في التربية والتعليم ونجاحها في تغيير المجتمع الجاهلي بكل عاداته السيئة ، وسلوكياته التي شابها كثير من الانحراف إلى المجتمع الفاضل الذى قاد الدنيا حينئذ خير دليل على ذلك.

وهذا لم يأت من فراغ فإن الرسول -ﷺ- لم يأل جهدًا في التعليم والبيان مستخدمًا كل إمكانات البيئة من حوله لغرض التبليغ الذي أرسل من أجله حتى أنه وظَّف ما كان يعتريه من أحوال بشرية بقدرة عجيبة وعبقرية فائقة لتحقيق أقصى درجات التواصل الفكري والوجداني الذي يحقق التأثير والإقناع دون تكلُّف ولا شطط.

فمن الوسائل التي استثمرها الرسول -ﷺ- في تقرير المعاني، وتثبيتها في الأذهان هيئته وحاله ، وما يعتريه من حالات إنسانية بين البكاء والضحك، أو الغضب والرضا، أو الخوف والطمأنينة، وغيرها من الأحوال البشرية التي تعتري الناس وقد كانت شديدة التأثير على جمهور المتعلمين .

ويمكن أن ندرك أثر هيئة المعلم على المتعلمين، وأهميتها إذا تأملنا ما ورد في الحديث : (عَنْ صُهَيْبٌ أَنَّهُ سَمِعَ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَمِنْ أَبِي سَعِيدٍ يَقُولَانِ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يَوْمًا فَقَالَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَكَبَّ فَأَكَبَّ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا يَبْكِي لَا نَدْرِي عَلَى مَاذَا حَلَفَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فِي وَجْهِهِ الْبُشْرَى فَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ ثُمَّ قَالَ مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَيَصُومُ رَمَضَانَ وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ السَّبْعَ إِلَّا فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَقِيلَ لَهُ ادْخُلْ بِسَلَامٍ "[٢].

---

(٢) ينظر حاشية السندي على النسائي لأبى الحسن السندي ج ٥ ص٨ كتاب الزكاة حديث رقم ٢٤٣٨ / تحقيق عبد الفتاح أبو غدة / – ط ثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب.

فالمتأمل للهيئات والأحوال التي اعترت المعلم الأعظم ، وانعكاسها على من حوله يجد أنها في قمة التأثير في تثبيت المعاني، وتأكيدها، وربط المخاطبين به برباط وثيق من بداية الحديث إلى نهايته .

وهي وسيلة مهمة عميقة الأثر في العملية التعليمية والتربوية المقصودة من الحديث، فقد ضمَّ أكثر من هيئة مؤثرة من الإكباب، ثم رفع الرأس، إلى الاستبشار، ولكل حالة تأثيرها على السياق، والمعنى والمتعلمين .

فالأولى : كما حكى الصحابي : (ثم أكب فأكب كل رجل منا يبكي) ثم أكب، أي سقط وهو كناية عن عظيم ما يرى وأنه من الأمور الهائلة، وهو ما يظهر من قرائن الحال الدالة (٣).

وتأثير هذه الحال على السياق البلاغي يبدو في صياغة الصحابي للعبارة حيث استخدم (ثم) للربط بين جملة القسم القولية (والذي نفسي بيده) والحال التي وصفها الصحابي بقوله: (فأكب) والربط بـ (ثم) خاصة يشير إلي فترة زمنية قضاها الرسول- ﷺ - بعد أن أقسم دون داع معلوم للصحابة مما صعَّد الشعور بالوجل والترقب لدى المخاطبين، وزاد الأمر رهبة بتكرار القسم .

ومن المعلوم أن اهتمام المعلم بجزئية معينة في أثناء حديثه، وتوقُّفه عندها يستدعي اهتمام المتعلمين، ويلفت انتباههم إليها ، إضافة إلى أن هذه الهيئة ترتبط في أذهانهم بهذا المعنى مما يجعلها أبقى مع الزمن .

وقد استخدم القسم حال صدقه وله ما له من الأثر في ترسيخ المعلومات الواردة في سياقه مع أنه غير مكذب .

ثم ربط جملة الحركة التعبيرية الصادرة من الصحابة كرد فعل لإكباب الرسول- ﷺ - بالتي قبلها: (ثم أكب)بالفاء في قوله:(فأكب كل رجل منا يبكي)

(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ٨.

والفاء توحي بسرعة التجاوب الشعوري بين المتكلم، والمخاطب، وتؤكد نجاح السياق في تحقيق التواصل الدقيق بين المتكلم، والمخاطب .

يؤكد ذلك إسناد الفعل:(أكب) إلي لفظ الشمول (كل) وإضافته للنكرة التي تفيد الاستغراق إشارة إلي تأثير الأسلوب على سائر المتعلمين بالدرجة نفسها، وهذه قمة ما يصل إليه بليغ بأسلوبه مع اختلاف الأفهام، ودرجات الاستيعاب.

ويمكنك أن تدرك قوة تأثير هيئة المعلم وحاله مع تركيبة السياق إذا وضعت في الاعتبار أن تجاوب النفس ابتداءً، والسعادة التي فُضّلت على حُمر النعم انتهاءً، وبكاء الجميع فيما بينهما ليست بسبب معلوم لدى المخاطبين، وإنما هو محض تأثر به .

وهو ما يكشف عن قيمة الهيئة ، وأثرها وكيفية توظيفها في السياق لتقرير المعاني وتثبيتها ، وربط المتعلمين بمعلهم حتى تمام عملية التوصيل،وهي نتيجة الصدق الشعوري والتفاعل مع المعاني .

أما الحالة الثانية في قوله:(ثم رفع رأسه وفي وجهه البشرى) فهي كناية عن السرور، وذهاب الغم والهم، وتأثيرها يبدو من عدة أوجه : فقد أوحت بانقشاع ضباب الخوف، والرهبة، وبدلت إحساس المخاطبين ، ونبهتهم إلي بداية الحوار الذي قطعه سكون الرهبة والإكباب ، وصعَّدت استشراف المخاطبين إلي المعني؛ لأن تتابع المشاعر، والانفعالات في الموقف الواحد بين الرهبة والرغبة المفهومة من قوله:(وفي وجهه البشرى) أمر يحقق اليقظة، وينشط النفس، ويجعل الأسلوب حيًا نابضًا مؤثرًا مسيطرًا .

وقد بلغت هيئة الرسول – ﷺ – وحاله قمة التأثير النفسي فيمن حوله يفهم ذلك من قول الراوي : (وكانت أحب إلينا من حمر النعم) الذي يشير إلي قمة التجاوب النفسي المنبعث من دلالة الألفاظ حيث استخدم أفعل التفضيل(

أحب)والجار والمجرور(إلينا) الذي يعطى الخصوصية ثم (حمر النعم) وهي كرائم أموال العرب يضربون بها المثل في نفاسة الشيء[٤].

ثم قال:(ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة) .

وبقليل من المتأمل في أسلوب الرسول- ﷺ - التعليمي نجد أنه حافظ على درجة السيطرة للأسلوب من بدايته إلي منتهاه حيث استخدم القصر لتوثيق المعني بطريق النفي، والاستثناء، وهو طريق يستخدم فيما ينكره المخاطب - غالبًا- أو يشك فيه [٥]لأن المعني الذي جاء في ثوب النفي والاستثناء معني عظيم من شأنه أن يُستبعد من بعض العقول ، ثم إنه استخدم من الزائدة لتوكيد الاستغراق بدخولها علي النكرة (عبد) ليفيد التعميم .

ومن الملاحظ في الأفعال المستخدمة في الخبر قبل أداة الاستثناء أنها في صيغة المضارع (يصلى – يصوم – يخرج – يجتنب) لتفيد التجدد والاستمرار مع استحضار الصورة، وهو الموافق للحالة، والهيئة التي أشعلت وجدان المخاطبين، وهيَّئتْهم لتلقى الأحداث الواردة في الخبر، وكأنهم فيها تتجدد بهم كل يوم خمس مرات مع الصلوات، وشهراً كل عام مع الصيام ومرة كل عام مع الزكاة، وفراقاً على الدوام لكل الكبائر .

أما بعد أداة الاستثناء،فقد جاءت صيغة الأفعال في صورة الماضوية المبنية لما لم يسم فاعله:(فتحت، فقيل) فالماضي يفيد تحقيق الثواب بفتح أبواب الجنة والحفاوة بهؤلاء العباد الذين فعلوا ما أُمروا به واجتنبوا ما نُهوا عنه، وبناؤه لما لم يسم فاعله تركيز على المراد المحبوب، وهو فتح أبواب الجنة

(٤) ينظر عون المعبود شرح سنن أبي داود (محمد شمس الحق العظيم آبادي أبوالطيب) جـ : ٤ / ص : ٢٠٦ / الطبعة الثانية / دار الكتب العلمية/ بيروت / سنة : ١٤١٥ هـ.

(٥) ينظر مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ج ٢ ص١٩٣ طبعة دار الإرشاد الإسلامي- بيروت.

بالإضافة إلى أنه يجعل العقل يذهب في تصوّر مَنْ يفتح لهم ومن يستقبلهم بالحفاوة كل مذهب، وهو وسيلة بارعة للحفاظ على نشاط المخاطبين الذهني ويقظة وجدانهم حتى تمام المعني؛ لأنه أجلّ من أن يتلقاه غافل، أو معرض.

وقوله : (فقيل له ادخل بسلام) يفسر سر هيئة الاستبشار على وجه المعلم الأعظم (فرفع رأسه وفي وجهه البشر)؛لأنه- ﷺ - مهموم دائمًا بأمته يفكر فيما يعتريها، وهو سر إكبابه فلما جاءته البشرى من ربه سرعان ما انعكست من باطنه على ظاهره؛ فعرفها صحابته - رضوان الله عليهم - فَعَلَتهم أمواج الحيرة لعدم علمهم بسبب إكبابه، وتعلقت قلوبهم من بعد أسماعهم، وأبصارهم بشخصه -ﷺ- فلما صدر المعني وافق قلوباً يقظة، ونفوساً مستشرفة.

وبذلك تكون هيئة المعلم قد أدت دورها، وخدمت المعني ؛ بداية بتهيئة المخاطبين لتلقيه، وتقبُّله، ووعيه، وتبليغه، ورافقت المعني أثناء الحديث وأسهمت في تشكيل السياق البلاغي، ثم ضمنت للخبر بعد تمامه الثبات والدوام في القلوب ، والذيوع والانتشار بين الناس لطرافته لما رافقه من هيئات مختلفة وأحوال غير معتادة في مجلس واحد.

وقوله (ادخل بسلام) أمر للتكريم، وهو جزاء من جنس العمل، وعود على بدء؛ لأن من صان فرض الله بأداء هذه الأركان، وحقوق الناس باجتناب الكبائر؛ فقد عاش في سلام مع الله، وسلام مع الناس؛ فدخل بهذا السلام الجنة مع حفاوة الله وملائكته.

تفاعل المعلم مع المعاني التي يسعى إلى نقلها للمتعلمين .

تفاعل المعلم مع الأحداث والمعاني التي يسعى إلى تبليغها للناس من الأمور شديدة التأثير في العملية التعليمية ؛ لأن وجدانه ينعكس على وجدان المتعلمين الذين يتأثرون بما يشعرون به من حاله ولذا قالوا ما خرج من القلب وصل إلى القلب ، وما خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان .

وقد ورد عن المعلم الأعظم -ﷺ- في هذا المعنى ما يجل عن الحصر في مثل هذا البحث فقد كان -ﷺ- يتكلم من وجدان فياض وجدان من رأى الجنة بنعيمها، ورأى النار بجحيمها، ورأى ما رأى عند سدرة المنتهى، وما كشف له من أهوال القبور، والحشر والنشر[٦]، وزوى الله له الأرض ؛ فرأى مشارقها ومغاربها[٧] واختصه الله بمعارف بصرية وقلبية وجمع له بين علم اليقين وعين اليقين مع الخشية القلبية واستحضار العظمة الإلهية على وجه لم يجتمع لغيره[٨].

فكل كلمة وحرف وكل حركة ذات دلالة رافقت سياق حديثه حملت قدرًا من هذا الفيض يستنفذ جهد المجد ولا يستطيع أن يحيط بكل أسراره ومن هذه الأحاديث التي حملت فيضا من وجدانه بدا على حاله وهيئته عندما استشعر خطرًا على أمته ما ورد : (عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ -رضي الله عنه- قَالَ قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ ثَلَاثًا قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ) [٩].

---

(٦) قال -ﷺ-:(إنه عرض عليَّ كل شيء تولجونه) أي تدخلونه من جنة ونار وقبر وحشر. قال القاضي عياض : قال العلماء : تحتمل أنه رآهما رؤية عين – كشف الله -تعالى- عنهما وأزال الحجب بينه وبينهما -....، وتحتمل أن تكون رؤية علم وعرض وحي باطلاعه وتعريفه من أمرهما ما لم يعرفه قبل ذلك... والتأويل الأول أولى وأشبه بألفاظ الحديث) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ج ٦ ص ٢٠٧. الطبعة الثانية ١٣٩٢ / دار إحياء التراث العربي. بيروت.

(٧) قال رسول الله -ﷺ-إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ...) ينظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٣٣١٥ ت / محمد فؤاد عبد الباقي طبعة / دار إحياء التراث العربي. بيروت.

(٨) – فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج ١١ص ٥٢٧ / طبعة دار المعرفة – بيروت / سنة : ١٣٧٩.

(٩) صحيح البخاري / جـ : ٢ / ص : ٩٣٩ / كتاب الشهادات / باب ما قيل في شهادة الزور / حديث: ٢٥١١.

جلوس الرسول – ﷺ – من اتكائه فجأة أثناء الحديث إيذان بانفعاله بالمعني، وإحساسه بخطره، وتأكيد لحرمة الزور، وتعظيم لقبحه، وبالنسبة للمتعلمين ؛ فإنه يصعد الموقف، ويعلى نبرة التحذير التي علا بها الأسلوب حتى ارتقى بها درج الكبائر إلي الحد الذي لم يبلغه مع غيرها من الكبائر المذكورة؛ لأن الحوامل على الزور كثيرة كالعداوة، والحسد، وغيرها فاحتيج إلي الاهتمام به وتعظيمه(١٠) .

والمتأمل لسياق الحديث البلاغي يدرك جانبًا من عبقرية المعلم الأعظم وكيف يسيطر على حواس المتلقين حتى يحقق أعلى درجة من اليقظة والاهتمام بالمعنى، فقد استخدم أدوات التنبيه التي تحقق اليقظة، وتثير الذهن (ألا أنبئكم)، وحافظ على درجة التنبيه واليقظة التي حققتها (ألا) وصعَّد الإحساس بالمعني عن طريق التكرار للعبارة ثلاثاً كما حدَّث الراوي (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) بالإضافة إلي تكوين العبارة البلاغي حيث استخدم (ألا) ثم الفعل (أنبئ) الذي يدل على الخبر العظيم (١١) ثم اتصاله بضمير الجماعة ثم أفعل التفضيل (أكبر) وإضافته للكبائر التي تعني أن هذه الأنواع المذكورة هي قمة الذنوب صعوداً في مسالك الردى .

ثم التفصيل بعد الإجمال الذي حقق التشويق، وحافظ على درجة التنبيه حتى النهاية مع تأكيد المعني وتقريره، ثم الانتفاضة المفاجئة من الاتكاء إلي الجلوس، ثم التكرار الذي فاق الحد للعبارة الأخيرة، وصعَّد الإحساس بخطر قول الزور إلي درجة فاق بها كل ما سبقها من الكبائر، وذلك لكثرة أشكال الزور وتشعبها في معاملات الناس مع غفلة الناس عنها (١٢).

---

(١٠) ينظر فتح الباري جـ: ٥ ص : ٢٦٣/ ط دار المعرفة بيروت لبنان / ١٣٧٩هـ.
(١١) – ينظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم / د: صبَاح عبيد دراز / ص : ٧ / الطبعة الأولى /١٤٠٦ / ١٩٨٦م مطبعة الأمانة – مصر
(١٢) ينظر الحديث النبوي من الوجهة البلاغية / د: عز الدين السيد/ ص : ٨٣.

من وسائل التواصل الوجداني بين المعلم والمتعلم .

وردت في بعض الأحاديث النبوية حركات تبدو عفوية لكنها تميزت بالأثر العميق في وجدان المتعلم والمتلقي ، الأمر الذي ينعكس على العملية التعليمية والتربوية بتنبيهه قبل تقرير المعنى المراد وقطعه عن شواغله الوجدانية والحسية .

فمن الحركات المصاحبة للتعبير التي تعكس المحبة وتوحي بنوع من الألفة والشفقة، وتكون إرصادًا لما بعدها من معني، وتمهيدًا له ما ورد عن: (عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُمَرَ-ﷺ- قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ:(كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ)[١٣]

قال الطيبي في قوله -ﷺ - (كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل) ليست، أو للشك بل للتخيير، والإباحة والأحسن أن تكون بمعنى بل، فشبَّه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه، ثم ترقى، وأضرب عنه إلى عابر السبيل، لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع، وبينهما أودية مردية، ومفاوز مهلكة، وقُطَّاع طريق فان من شأنه أن لا يقيم لحظة، ولا يسكن لمحة، ومن ثم عقبه بقوله إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح...[١٤]

ولعل هذا ما أراد الرسول- ﷺ - أن يقرره، فمهَّد له بفعل يقسر الانتباه عن طريق هذه الحركة التعبيرية التي رافقت السياق (أخذ بمنكبي) وإن كانت تبدو عفوية، إلا أنها حال صدورها من الرسول- ﷺ - ذات دلالات فياضة، وآثر بالغ فهي أكرم يد، وفي موضعها تهبط الرحمة .

---

(١٣) صحيح البخاري / ج ٥ / ص :٢٣٥٨ / كتاب الرقاق / باب :قول النبي - ﷺ -.(كن في الدنيا كأنك غريب او عابر سبيل) حديث:٦٠٥٣.

(١٤) فتح الباري / لابن حجر العسقلاني / جـ : ١١ ص : ٢٣٤.

ووضع اليد على المنكب كناية عن الألفة، والمحبة، والاختصاص إذا صدرت من صديق، أو حبيب، أو ملاطف، وهي حال صدورها تشعر المتعلم بالحظوة لدى المعلم، واختصاصه بمزيد التكريم مما يجعله أكثر قبولًا للأمر، واجتنابًا للنهى ووعيًا للدروس التي يتلقاها.

كما تحقق يقظة المتعلم، وتجعله أكثر وعيًا وحرصًا على نشر المعني ؛ لأنه خُصَّ به من رسول الله-ﷺ- ، وأخيراً تثبِّت المعني في ذهنه لارتباطها بالأمر المحسوس كما رأينا أثرها مع سيدنا ابن عمر- ﷺ -بروايتها تفصيلًا، وما أضافه من فقهه للمعني مع عنايته به.

وقد تأتي هذه الحركة المصاحبة للتعبير في العملية التعليمية للتحذير في سياق يؤكدها في نبرة توحي بالشفقة على المخاطب تنبيهًا له إلي ما يجب عليه في معاشه، أو معاده،وتحذيرًا له مما يحيط به .

كما ورد:(عن الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ عَلَى مَنْكِبِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ :(أَفْلَحْتَ يَا قُدَيْمُ إِنْ مُتَّ وَلَمْ تَكُنْ أَمِيرًا وَلَا كَاتِبًا وَلَا عَرِيفًا)[١٥].

(قديم) تصغير ترخيم مقدام بحذف الزوائد، و العريف هو : القيِّم بأمور القبيلة أو الجماعة، وقيل (عريفاً) بمعني معروفاً مشهوراً والأول صحيح[١٦].

وقوله: (ضرب على منكبي) بمثابة التنبيه، والإيقاظ للمعنى ؛ لأنهذه الضربة تستولي على المتعلم بكل حواسه، وتقصرها على المعلم حتى ينتهي مما يريد مع تثبيت المعنى، وترسيخه في ذهنه، وهي كناية عن المودة، والاهتمام يدل

---

(١٥) سنن أبي داود جـ : ٣ : ص : ٩٢ / كتاب الخراج والفيء والإمارة / باب في العرافة / الحديث : ٢٩٣٥.

(١٦) ينظر عون المعبود شرح سنن أبى داود للعظيم آبادي /ج ٨ ص ١٠٨/ دار الكتب العلمية /الطبعة الثانية ١٤١٥هـ بيروت لبنان.، وفيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج ٢ ص ٥٥.

على ذلك نداؤه الصحابي باسمه مرخمًا، ثم تحذيره من الإمارة، والكتابة، والعرافة.

وتأمل عبقرية المزج بين الحركة التعبيرية، والسياق اللفظي حيث ترك مهلة بعد هذه الحركة يهيئ فيها المتعلم نفسه، ويصفي له ذهنه، ويفرغ له قلبه . تُفهم هذه المهلة من ربط الراوي بـ(ثم) في قوله (ثم قال) بعد ضربه على منكبه.ثم الجملة الدعائية (أفلحت يا قديم)، وهي خبرية لفظاً إنشائية معني ؛ لأن المقصود بها الدعاء، والتعبير بلفظ الماضي عن أمر مستقبل يفيد تحقق الوقوع، أو هو من باب التفاؤل بتحقق الوقوع.

وقد تكون الجملة على سبيل الحقيقة خبرية لفظاً ومعني في أسلوب شرط يربط الجزاء بالفعل قدم فيه جملة الجواب (أفلحت) على جملة الشرط (إن مت ولم تكن أميرًا) أو أن الجواب محذوف دلَّعليه المذكور أي: إن مت ولم تكن أميراً أو عريفاً أفلحت.

من وسائل تثبيت المعنى بعد تقريره عن طريق الحركات التعبيرية في نهاية العملية التعليمية .

قد تأتى الحركة التعبيرية في نهاية العملية التعليمية بعد تقرير المعنى للتأكيد عليه ما سبقها، وتحذيرًا من خطره كما ورد عن أبي هريرة قال حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّه -ﷺ-(أَنَّ اللَّهَ- تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَرَجُلٌ يَقْتَتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ قَالَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ قَالَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ

تَعَالَى بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[١٧].

أبو هريرة راوي الحديث من أكثر الصحابة نقلًا للعلم عن رسول الله – ﷺ– والمعاني التي تضمنها الحديث من أدق المعاني وأخطرها، فهو يتحدث عن أعظم الأعمال رتبة في الأجر، وهي الجهاد حتى الشهادة، وحفظ القرآن، ثم تحفيظه لغيره، وصاحب مال كثير أنفقه في سبيل الله، ومع عظم هذه الأعمال لم تنفع أصحابها؛ لأنها فقدت عنصر الإخلاص ، فصارت وبالًا عليهم .

وتنقية العمل من شوائب الشرك أمر دقيق يجهله كثير من الناس ممن لا يستطيعون التفريق بين حظوظ النفس ورغبتها في الظهور، والفخر بالأعمال الذي يبطلها، وبين من يجردها لله – تعالى – .

وقول سيدنا أبي هريرة في نهاية الحديث:(... ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وهذه الضربة كناية عن الاهتمام، والمحبة ؛ لأنها تعكس حرص الرسول– ﷺ– على يقظة أبى هريرة – ﷺ – وتنبيهه إلى هذا الخطر المحبط لأعظم الأعمال حتى يتجنب مصدره، وينبه غيره ليحذره.

---

(١٧) سنن الترمذي الجامع الصحيح جـ٤ ص ٥٩١ / كتاب الزهد / باب ما جاء في الرياء والسمعة / حديث : ٢٣٨٢ / تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون / ط – دار إحياء التراث العربي / بيروت.

ومن ذلك ما ورد : عن أبى هريرة-ﷺ- قال :قال رسول الله -ﷺ- (...فَوَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا قَالَ هِشَامٌ بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا جَاءَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا فَلَأَعْرِفَنَّ مَا جَاءَ اللَّهَ رَجُلٌ بِبَعِيرٍ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بِبَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٍ تَيْعَرُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ) (١٨)

الحركة التعبيرية الواردة في نهاية الحديث في قوله: (ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ)كناية عن التوجه إلى الله والدعاء والاستعانة مع ما توحي به من الخضوع والافتقار إلى الله حكمًا، وشاهدًا، وقد وردت بعد سياق تعليمي راعد من الترهيب من الغلول.

وقد أثَّرت على العملية التعليمية والسياق البلاغي والمتعلمين من عدة أوجه منها أنها : صدرت ، وتولدت نتيجة الانفعال بالمعني الذي يتحدث عنه – ﷺ –قبلها فلها ارتباط وثيق بما قبلها، ومنها : أنها صعدت شعور المخاطبين بالرهبة من المعني التي صدرت في ركابه، وأكدت خطر الغلول، لأن الذي رفع يديه إلي السماء نبي وليس إنسانًا عاديًا، ومنها: أنها ثبتت المعاني في الأذهان لارتباط العبارة المسموعة بالحركة الموازية المرئية، وبذلك يتقرر المعنى بحاستي السمع والبصر، ومنها أنها أرصدت لما يليها من معني التضرع والدعاء والتوجه بالقضية إلي الله حكمًا، وشاهدًا لأن الداعي المتضرع يرفع يديه تجاه السماء.

وقد جاء الاستفهام (هَلْ بَلَّغْتُ؟) بعدها في ختام الحديث تقريرًا وتثبيتًا بمعني : قد بلغت وقد جاء كتلخيص، وتركيز لما سبق من سياق تحذيري يبرق بالتهديد، والوعيد من التعدي والخيانة، ومناسبا للحركة التعبيرية برفع اليدين إلي السماء.، ومبالغة الرسول – ﷺ – في رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه أعطت الخبر شكلا مختلفًامن الاهتمام يضمن له الذيوع والانتشار.

(١٨) صحيح مسلم / جـ : ٣ / ص : ١٤٣٦ / كتاب الأمارة / باب غلظ تحريم الغلول / حديث : ١٨٣٢.

من الوسائل التعليمية والتربوية التي تحافظ على درجة إنصات المتعلم وتركيزه حتى تمام العملية .

من الحركات التعبيرية المتتابعة المؤثرة، الموافقة للسياق التعبيري ما ورد :(عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَحْشٍ قَالَ كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ وَضَعَ رَاحَتَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ ثُمَّ قَالَ:(سُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا نُزِّلَ مِنَ التَّشْدِيدِ ؟ فَسَكَتْنَا وَفَزِعْنَا فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ سَأَلْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا التَّشْدِيدُ الَّذِي نُزِّلَ؟ فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيِيَ ثُمَّ قُتِلَ ثُمَّ أُحْيِيَ ثُمَّ قُتِلَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ دَيْنُهُ)[١٩].

قول الصحابي في أول الحديث (كنا جلوساً عند رسول-ﷺ-...) بصيغة الجمع يفيد كثرة المخاطبين كعادة الصحابة في الالتفاف حول الرسول - ﷺ - ليتلقوا عنه شرع الله – ﷻ-، وهم على هذه الحال تتعلق أبصارهم بالرسول - ﷺ - محبة له واستشرافًا لما يقول، والحال التي حكاها الصحابي:(فرفع رأسه ثم وضع راحته على جبهته) : كناية عن هول ما رأى، وخطر ما علم حيث رفع رأسه إلي السماء، ثم وضع راحته على جبهته، وكأن عينيه لم تتحملا هول ما رأى، فراح براحته على جبينه يعيد لنفسه أنفاسها الذاهبة، والصحابة ينظرون الرسول - ﷺ - بنفسه المطمئنة، وقلبه المتصل بالله قلق مهموم.

أما عن تأثير هذه الحال على جمهور المتعلمين ؛ فإن المشهد بالنسبة لهم تهويل تحار له العقول، وتعجز عن تخطيه العيون، فتتابع أفعاله، وتكرار أقواله إنذار بهول عصيب، أدرك ذلك الصحابة -ﷺ- فغرقت قلوبهم في أمواج الحيرة، واحتبست الكلمات مع احتباس الأنفاس، وتثاقلت ألسنتهم عن تخطي الموقف

(١٩) سنن النسائي /كتاب البيوع /حديث ٤٦٠٥ (تحقيق عبد الفتاح أبو غدة) طبعة دار إحياء التراث العربي.

والسؤال عن سر ذلك، فذهب كل منهم، والمشهد بين عينيه، وأمواج الحيرة تغرق سفن الفكر، ولم يستطع أحد من الصحابة السؤال إلا في اليوم التالي.

والمتأمل لأثر هذه الحركة التعبيرية على السياق بعدها يدرك أنها انعكاس لها،وصدى لمدلولها الذي مهَّدت له فقوله:(سبحان الله!)أسلوب تعجب سماعي[٢٠] يؤكد أن عظيماً وراءه، وقد زادها تكرارها تهويلًا وقفت له قلوب الصحابة .

ثم تبعها باستفهام أكدَّ الهول وزاد من استشرافهم وصعَّد الإحساس بالخطر في نفوسهم مما يترقبون في قوله:(ما نزل الليلة من التشديد ؟) والاستفهام تعجب وترهيب وتهويل وتحذير، ومعان أخرى تستشعرها.

أضف إلي ذلك صياغة الفعل في صورة الماضي (نزل) التي تفيد التحقق بسبق الوقوع في الزمن ثم جعل:(الليلة) ظرفاً له مما يقرب الخطر أكثر فأكثر، وفي اليوم التالي بعد أن طار المعنى بأجنحة الخبر الطريف إلي كثير من الصحابة سأله محمد بن جحش: (وما التشديد الذي نزل ؟) والاستفهام على حقيقته وإجابة رسول الله -ﷺ- : تلته دون انتظار؛ لأن جمهور المتعلمين في قمة الاستشراف، وقد تمت تهيئتهم للخبر بما يجعله ملأ أبصارهم، وأسماعهم، وقلوبهم.

وعندما تسمع سرها في قول الرسول- ﷺ - (وعليه دَيْن) تدرك سببهذه الحركة التعبيرية ، وعلاقتها بختام الحديث ؛ لأنه رأى عظيم العقاب، وخطر الأمر مع تهاون الناس فيه، واستهانتهم بالوفاء به جهلاً بعاقبته، وغفلة عن خطره فهاله الأمر، وأدهشه الخطب، وهو بتوفيق النبي - ﷺ -، وحذق العربي، وردِّ فعل العبقري استطاع أن يعكس شعوره على المتعلمين حتى ينطبع في نفوسهم هذا الأمر الذي وقع في نفسه، أو يقارب؛حتى يقدروا لخطر الدَّيْن قدره.

---

(٢٠) ينظر الأصول في النحو لابن السراج ج:٢ -ص: ٢٥٢ / ت:عبدالحسين الفتلى / الطبعة الثالثة سنة : ١٩٨٨ م / طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت.

وقد استطاع أن يبلغ بهم هذا الأثر عن طريق مجموعة من الوسائل التعليمية من حركات تعبيرية متصلة بطبيعة المعنى ، ثم أسلوب التعجب السماعي، ثم بأسلوب الاستفهام، ثم تركهم دون أن يروى ظمأهم لمعرفة السبب حتى اليوم التالي، وبذلك ينتشر المعنى في نطاق أوسع، ويستشرف إليه عدد أكبر من المتعلمين ، ثم أقسم تعظيمًا للخبر : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ...) ثم افترض المستحيل – بالنسبة لهم– (لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيِيَ...) ثم كرَّر الفرض أكثر من مرة:(ثُمَّ أُحْيِيَ ثُمَّ قُتِلَ ثُمَّ أُحْيِيَ ثُمَّ قُتِلَ...) زيادة في تعظيم خطر الدّيْن، وبيانًا لمداه في منع العبد من الجنة، وبعد هذا الإعداد الوجداني والعقلي لوضع المعنى في حجمه وكشف خطره جاءت إجابته:(وعليه دين)حتى لا يتهاون إنسان في أداء ما عليه مهما قل، أو كثر.

ومن ذلك ما روى :(عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْيُنَاتِيِّ قَالَ كُنْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي أَشْتَرِي هَذِهِ الْحِيطَانَ تَكُونُ فِيهَا الْأَعْنَابُ فَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَبِيعَهَا كُلَّهَا عِنَبًا حَتَّى نَعْصِرَهُ قَالَ فَعَنْ ثَمَنِ الْخَمْرِ تَسْأَلُنِي سَأُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ–كُنَّا جُلُوسًا مَعَ النَّبِيِّ –ﷺ – إِذْ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ أَكَبَّ وَنَكَتَ فِي الْأَرْضِ وَقَالَ الْوَيْلُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالَ عُمَرُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَقَدْ أَفْزَعَنَا قَوْلُكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنْ ذَلِكَ بَأْسٌ إِنَّهُمْ لَمَّا حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ الشُّحُومُ فَتَوَاطَئُوهُ فَبَيِعُونَهُ فَيَأْكُلُونَ ثَمَنَهُ وَكَذَلِكَ ثَمَنُ الْخَمْرِ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ)[٢١]

هذا الحديث يشتمل على أكثر من حركة تعبيرية دالة بين رفع الرأس إلي السماء، ثم الإكباب، ثم النكت في الأرض، ومن شأن هذه الأمور حال صدورها من المعلم أن تلفت نظر المتعلمين ، وتشغل خواطرهم ونفوسهم شوقًا إلي معرفة سببها.

---

(٢١) مسند أحمد/ جـ : ٢ / ص : ١١٧/ كتاب مسند المكثرين / باب مسند عبدالله بن عمر / حديث : ٥٩٨٢.

ويمكن أن ندرك ذلك من البناء التعبيري بعدها، والذي جاء متأثرًا بها يحمل دفقة من جنسها حيث قال-ﷺ-: (الويل لبنى إسرائيل) وكلمة (الويل) من الكلمات الموحية بطبيعتها ؛لأن السياق معها يفيض بالوعيد ؛ لأن معناها : الحزن والمشقة من العذاب [٢٢] وتثير عند إطلاقها الانتباه وتلفت الذهن وتحدث في النفس وجلاً وهيبة يستلزمان متابعة المتعلم للمعلم ؛ لأنها تحمل غموضاً وإبهاماً يحتاجان إلي تفسير وتوضيح.

وقوله: (لبنى إسرائيل) اللام للاستحقاق [٢٣] وهو أمر من شأنه أن يخفف من أثر الشعور بالرهبة والفزع الناتجين عن الحال الدالة، ثم العبارة القولية لعلمهم أن هذا الهول موجه إلي غيرهم ؛ لأنه قصره على بني إسرائيل عن طريق تعريف المسند والمسند إليه، وإن كان هذا التخصيص لم يزل خوفهم كلية بل خففه، ولكنه زاد من استشرافهم إلي معرفة سبب الوعيد، يدل على ذلك قول عمر- ﷺ - (يا نبي الله لقد أفزعنا قولك لبنى إسرائيل)فقد عبَّر بالفعل (أفزع) الذي يدل علي شدة الخوف والمفاجأة به، ثم اتصال الفعل بـ (نا) مفعولاً للفعل دلالة على عموم أثره، ولا ننسى أن الفَزِعَ المتحدث هو سيدنا عمر- ﷺ - أكثر الصحابة قوة قلب وبأسًا.

ومما يؤكد سرعة التجاوب مع هذه الوسائل خلال الحركات التعبيرية ، والعبارة اللفظية الرد السريع الذي صدر من سيدنا عمر والذي أشار إليه الراوي من خلال الربط بالفاء في قوله:(فقال عمر يا نبي الله) ونداء سيدنا عمر بـ(يا) دون غيرها تعظيم للرسول- ﷺ - وإشارة إلي علو المكانة مع قرب المكان .

---

(٢٢) ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير / جـ : ٥ ص : ٢٣٦ / تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ومحمود الصناحي / ط المكتبة العلمية – بيروت.

(٢٣) الجني الداني في حروف المعاني للحسن بن القاسم المرادي ص٩٦ ت د:فخر الدين قباوة الأستاذ محمد نديم فاضل/الطبعة الأولى/١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م/ دار الكتب العلمية

وقد جاءت إجابة الرسول- ﷺ - سريعة سرعة سؤال سيدنا عمر له:(ليس عليكم من ذلك بأس) نافيًا عنهم كل سوء فيما حدّث عنه، وأهمه حين رفع رأسه، وكأنه يستعرض التاريخ، ويراجع أحوال الأمم السابقة من خلال ما علَّمه ربه فرأى ما رأى من حال بني إسرائيل، والتفافهم حول ما حرم الله لتحليله من غير وجهه .

ورفع الرسول-ﷺ- رأسه، ثم إكبابه، والنكت في الأرض كناية عن التفكير والهم بعظيم يراه، أو يعلمه ولعله- ﷺ - رأى من حال أمته – وقد حدَّث بأنه رأى كل شيء يولجونه[٢٤] – بأن بعضهم سيفعل فعلهم – فأكب حزيناً، وراح ينكت في الأرض بالعود، ثم قال ما قال تحذيراً من التلبس بفعلهم، وإنما لم يصرح بالتحذير ؛ لأن أصحابه الأطهار لم يظهر فيهم مثل هذا، وهم أبعد الناس عنه، ولكنه نبَّه خلالهم من بعدهم حتى يحذروا من التهاون في المحرمات، ولا يحاولوا الالتفاف عليها كما فعل بنو إسرائيل .

والمتأمل للوسائل التعليمية التي استخدمها الرسول -ﷺ - والحركات التعبيرية في بداية الحديث يجد أنها أثَّرت على جمهور المتعلمين من الصحابة فأوحت بالرهبة المسيطرة على الحواس المصرفة لها تجاه المعلم الذي يعلم سببها، وهو أمر يمهِّد للمعنى، وهو إرصاد للتحذير من التلبس بالفعل المُحذَّر منه وإشارة إلي خطره.

وهذه الحركات التعبيرية أيضاً مثبِتة، ومقررة للمعنى ؛(لأن ارتباط المعلومات بأمور مقارنه لها في الفكر تجعله أبقى على الزمن وأثبت في النفس فلا بدع أن يكون ما ذكرنا داعية من دواعي حفظ الصحابة لكتاب الله وسنة رسوله -ﷺ - على حين أنهم هم المشاهدون لتلك الوقائع والحوادث المشافهون

(٢٤) الحديث في صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٢٢ / كتاب الكسوف / باب ما عرض على النبي- ﷺ - في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار / حديث :٩٠٤.

بخطاب الحق المواجَهون بكلام سيد الخلق في هذه المناسبات الملائمة، والأسباب القائمة التي تجعل نفوسهم مستشرفة لقضاء الله فيها، متعطشة إلي حديث رسوله عنها ؛ فينزل الكلام على القلوب وهي متشوقة كما ينزل الغيث على الأرض وهي متعطشة تنهله بلهف، وتأخذه بشغف، وتمسكه بحرص، وتحرص عليه بيقظة، وتعتز به وتعتد..... (٢٥)

ضحك المعلم ، وأثره على المتعلم وعلى السياق .

وظف الرسول- ﷺ - بفطرة العربي، وتوفيق النبي ضحكه ، وتبسمه في العملية التعليمية ليحقق عدة فوائد في خدمة الرسالة، وتبليغ معانيها، وقد ورد ضحكه في بداية الحديث، وورد في أثنائه ، وفي آخره، ولكل أثره، وفائدته ، وبلاغته ، فمن الضحك الذي وقع في بداية الحديث : تمهيدًا للمعنى، وقطعًا للسامعين عن شواغلهم لتتعلق أبصارهم بمعلمهم ما ورد : (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ؟ قَالَ: قُلْنَا :اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ قَالَ يَقُولُ بَلَى قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي قَالَ فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ انْطِقِي قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ قَالَ فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ) (٢٦).

قول الصحابي – ﷺ- (كنا) يوحى بالكثرة، وهي الأمثل للتعليم لتعميم الفائدة، والظرف(عند) يدخل بنا إلى المكان، وإضافته للرسول - ﷺ - يوحى

(٢٥) ينظر مناهل العرفان في علوم القران للشيخ / محمد عبد العظيم الزرقاني ج:١ / ص ٢٥٣.

(٢٦) صحيح مسلم / جـ : ٤ / ص : ٢٢٨٠/ كتاب الزهد والرقاق / حديث (٢٩٦٩).

بشرفه، وهو أمر يبعث الإحساس بالهيبة والجلال والذي يصعده إضافة الرسول لله -ﷺ- فيرتقى ذرى شرف المجالس ويستقر فوقها.

وقوله : (فضحك) التركيب يوحى بالمفاجأة التي تشي بها الفاء، وتلطف أثرها دلالة الضحك وتطويها الصياغة الماضوية في إحساس الصحابي بجمال ابتسامته – ﷺ – لأن الأوقات السعيدة – وإن طالت –قصيرة.

وضحكة الرسول– ﷺ – صدرت دون سبب معلوم لدي الصحابة وهو ما يخبر به تركيب سيدنا أنس – ﷺ– وهذا هو المحرك لكثير من الاستفهامات في أذهان الصحابة ؛ لأنه – ﷺ – لا ينطق عن الهوى ولا يتصرف إلا بحكمة، ومن ثم حققت هذه الوسيلة التعبيرية (الضحك) عدة فوائد منها : أنها بهذه المثابة وسيلة قويه لتنبيه المتعلم ، وتهيئته لتلقى المعنى بعدها، لأن كل ما خاطب به الرسول – ﷺ – أمته من الأمور المهمة والخطوب الجسام فلزم تهيئة المتعلمين لها.، ومنها : أنها تحقق التواصل بين المعلم والمتعلم ؛ لأنها تربط المتعلم بالمعلم بحاستي السمع، والبصر؛ فيتمكن المعنى لديه أيما تمكن، ولا يفوته منه قليل، ولا كثير .

كما أنها تحافظ على هذا التواصل إلى نهاية الحديث بما أحدثت في نفس المخاطب من تشويق واستشراف لمعرفة ما وراءها.

وهي أيضًا تداعب قلوب المتعلمين، ووجدانهم بخير ينتظر؛ لأن الضحك كسلوك إنساني يعكس السعادة، وصدوره ممن يتلقى الوحي عن ربه يبشر بعمومها كما يبشر بعظمتها لارتباط قيمة المُعطَى بقدر المُعطِى، وقدرته إيجاباً وسلباً.

ثم إن الرسول – ﷺ – بنى عليها الحوار وشكلت السياق البلاغي حيث رتَّب عليها الاستفهام الذي صعَد درجة التشويق ورفع درجة الانتباه من خلال الأسلوب الملفوظ (هل تدرون مم أضحك؟ !) بعد الأسلوب الملحوظ (الضحك).

وقوله: (فضحك فقال) تشير الفاء في قوله (فقال) إلي أنه – ﷺ – أخذهم في لحظة الإقبال إليه حال استشرافهم ليقرر المعنى الذي يمهد لـه، وهـو مـن عبقرية المعلم .

وقوله – ﷺ –(هل تدرون مم أضحك؟)(هل) هنا – والله أعلم – مركبـة، وهى التي يطلب بها وجوب شيء لشيء [٢٧] فهو لا يسأل عن الضحك، ولكـن عن سببه وهو الغرض الذي يريد أن يلفت نظرهم إليه ويشـعل كـل حواسـهم بالبحث عنه وحتى يتعمق إحساسهم به وبخطره.

والتعبير بلفظ (تدرون) دون تعلمون أو ما في معناه؛ لأن المادة تفيد معني العلم والمعرفة بلطف وإعمال فكر، والدرايـة المعرفـة المدركـة بضـرب مـن الحيل[٢٨].

ومن المعلوم أن الاستفهام لغرض التشويق والتنبيه ؛ لأنه – ﷺ – يعلـم يقينا أنهم لا يعلمون إذ هو أمر مرجعه إليه إنما أراد أن يبلغ بهم قمـة اليقظـة، والترقب التي تجعلهم يتلقفون كل حرف ينطق به بلهفة وشوق حتى يرسخ فـي نفوسهم بدرجة تجعلهم حفظته كما يحفظ المنقوش على صلد الحجارة، بيد أنهـم يتفاعلون مع المعنى قلباً، وقالباً حتى يطير عبر الزمان والمكان يحمله مـن كـل خلف عدوله.

– إلى هنا – بلغ جمهور المتعلمين قمة اليقظة، وقـد أخـذت ابتسـامة الرسول – ﷺ – بمجامع قلوبهم، ووجهت أبصارهم إليـه، وطـرق اسـتفهامه

---

(٢٧) قال الخطيب القزويني وهى : (يقصد هل) بسيطة وهى التي يطلب بها وجـود الشـيء. كقولنا : هل الحركة موجودة.، ومركبة وهى التي يتطلب بها وجود شيء لشيء كقولنا هل الحركة دائمة، ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ج١ ص١٣٢/ دار إحيـاء العلوم – بيروت –الطبعة الرابعة ، ١٩٩٨.

(٢٨) التوقيف على مهمات التعاريف /محمد عبد الرؤوف المنـاوي / ص :٣٣٥ ت : محمـد رضوان الداية /الطبعة الأولى سنة : ١٤١٠ هـ / دار الفكر بيروت.

أسماعهم، وأخذت الحركة التعبيرية بمضمونها بعقولهم تطوف حول شخص النبي – ﷺ – في انتظار بزوغ شمس المعنى ؛ فجاء قوله – ﷺ – (من مخاطبة العبد ربه...) مبنياً على الإيجاز بحذف الفعل (أضحك) أي: أضحك من مخاطبة العبد ربه، والغرض منه التركيز على المعنى المراد إذ أن الضحك في ذاته ليس مطلوبا، وإنما استخدمه للإعداد والتمهيد للمعنى.

وعبارة الرسول – ﷺ – (من مخاطبة العبد ربه) فيها بيان لسبب الضحك، ولكنه زاد من تشويقهم واستشرافهم إليه ؛ لأنه انتقل بالحوار، وأحداثه إلى الدار الآخرة. زاد الأمر تشويقًا أن طرفي الحوار عبد وربه.

والتعريف بالإضافة في قوله (من مخاطبة العبد..) قد يكون للتحقير كما تفصح عنه بقية الحديث؛ لأنه عبد معاند جاهل بربه متمادٍ في ضلاله، وقد يكون التعريف بالإضافة ؛ لأنه أخصر طريق لإحضاره في ذهن السامع.

وتعريف (العبد) باللام إذا اعتبرنا أنها للعهد الذهني بغرض صرف ذهن كل من يسمع الحديث إلي طاغية زمانه الذي كفر بربه، وجحد إحاطته به علماً، وقدرةً، فطغي، وبغي، ثم جاء- والجزاء من جنس العمل- علي معتقده، وحدث له هذا الموقف، فاستحق أن يُضحك من حاله .

كما قال- تعالى- : (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ، وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ، وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاء لَضَالُّونَ، وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ، فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ، عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ، هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (الآيات من ٢٩ : ٣٦ سورة المطففين) .

ولعل هذا يفسر سر ضحك الرسول–ﷺ– رغم أن الموقف شديد عصيب لعبد أوشك أن يمضى به إلي الجحيم، ولعلها المناسبة الخفية بين الضحك بدايةً، وبين المعنى النهائي للعبد صاحب الموقف.

وقول الرسول – ﷺ – : (يقول: يا رب..) نقلة كبري في سياق الحوار؛ لأن الرسول – ﷺ – لن يكون طرفًا في الحوار كما سبق، ولكنه سيكون راويًا للموقف مصورًا لأحداثه، وقد حملنا جميعًا إلي قلب الحدث عن طريق الفعل المضارع (يقول) الذي يشخّص عبدًا في موقف مهيب احتشد الناس جميعًا له، وهو أمر يمكن أن يتخيله عقل بوجه ما، لكن الذي لا يمكن لعقل أن يتخيله هو هيئة المتحاورين إلا من طرف واحد هو طرف العبد أما بالنسبة لله فهو أمر فوق مدركات البشر.

وقول العبد في الموقف المحكي (يا رب...) في نداء تلطف يخفي فيه هذا العبد ما يريد بعده، وقد غاب عنه من هول الموقف أن الله محيط بسرائر نفسه.

أو لعله جاهل بربه، أو كان ممن أنكر وجود إله في الدنيا، فكان جزاؤه من جنس عمله في الآخرة، فتلطف في ندائه ليخفي ما يريد بعده، وجملة الاستفهام بعده : (ألم تجرني من الظلم؟) تؤكد عزمه علي الاستمرار في كذبه على الله ؛ لأنه استفهام تقريري لحمل المخاطب علي الإقرار بالحكم، وهو يمهِّد به لما يريد بعد– والله مطلع على سريرته– وقد أجابه على وفق ما أرصد له: (بلي !) بمعنى أجرتك من الظلم، فأفصح عن نيته بقوله:(فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً منى)، لأنه يعلم جرائمه وإن ترك لشهادة الآخرين فإنه سيهلك ؛ ولذلك جاء أسلوبه مؤكداً بأكثر من مؤكد فقد أكده بـــــ (إن) مع أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء.

واختيار العبد لهذا الطريق دون غيرها لقصر إجازة الشاهد عليه على نفسه ونفيها عن كل ما عداها، لشعوره بأن الله سينكر عليه أن يستشهد بأعضائه على نفسه ؛ لأنها شهادة النفس لنفسها ؛ ولذلك ربطه بما قبله بالفاء (فإني لا أجيز) ليرتب هذا الطلب على إقرار المخاطب حتى يضمن إجابته لما يريد، وكثافة المؤكدات في عبارة العبد توحي بشدة خوفه، وحرصه الشديد على عدم قبول

شهادة الغير؛ لأنه يعلم أنها ستردیه، وأيضاً ليعالج بها شعورًا في نفسه بهول مصيره المرتقب.

فتأتى إجابة الله له بما يتمنى- أيضاً- استدراجًا له: (فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا) ثم ترك له فتره زمنيه يعلمها الله يشعر من خلالها أنه ظفر بما يريد، واقترب من النجاة هذه الفترة تشير إليها (ثم) في قوله(ثم يختم على فيه ويقال: لأركانه انطقي فتنطق بما فعل، فإذا خلي بينه وبين الكلام قال بعدًا لكن وسحقًا ، فعنكن كنت أناضل) .

وتسارع الأحداث بعد (ثم) يشير إلي تساقط خدعه، وانكشاف أمره، وإحاطة الهلاك به بعد أن نطقت أركانه التي استشهد بها، فشهدت عليه، والأمر في قوله : (انطقي) قد يكون علي الحقيقة بأن يخلق الله - ﷻ- فيها القدرة على النطق والكلام، أو بطريق يعلمها الله تؤدى بها الشهادة.

وقوله: (فإذا خلي وبين الكلام قال بعدًا لكن وسحقًا، فعنكن كنت أناضل) يكشف عن سر الحال الدالة، وهى الضحك في بداية الحديث من حال العبد المعاند المتمادي في ضلاله حتى في الموقف العصيب، فاستدرجه الله -تعالى- بتحقيق رغبته كما استدرجه في الدنيا بأنواع النعم التي لم يؤد شكرها حتى وقع في شر أعماله، وعادى بعضه بعضًا في ألم نفسي يليه ألم حسي جزاءً من جنس عمله قال تعالي :- (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ،وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ،وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاء لَضَالُّونَ، وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ،فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ...)(سورة المطففين الآيات: ٢٨ : ٣٦).

ولعلها هذه هي المناسبة الخفية بين ضحك الرسول - ﷺ - في بداية الحديث وبين المعنى النهائي الذي آل إليه الحديث، وإن كانت قد تبدو بعيدة، لأنها من غير وادي الحديث النبوي إلا أن الحديث بسبيل القرآن فكلاهما وحي من الله.

فالحديث صدَّق الآية في الدنيا قبل الآخرة لتيقن الرسول – ﷺ – بوقوع الخبر على ما حدَث به فعاشه كأنه يحدث حال الإخبار به فضحك في هذا الموقف كما سيضحك هو، والمؤمنون في الآخرة على ما يحيق بالفجار، وضحكه في وادي الحديث من وادي ضحك المؤمنين في قوله تعالي : (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ، عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ، هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)(سورة المطففين الآيات : ٣٤ : ٣٦).

وهو ما أشار إليه الزركشي بمصطلح الاقتصاص، وعرفه بقوله: (أن يكون كلام في سورة مقتصًا من كلام في سورة أخرى) (٢٩).

وقد تناول هذا التعريف الشيخ أبو موسى، وحلل شواهده، وقال عنه : (أن هذا أفضل ما يدرس به البيان سواء كان كلام الله، أو كلام الناس، وفكرة الاقتصاص هذه فكرة بالغة الدقة، وليس معناها الأخذ، ولا التكرار، وإنما معناها، أنك تري الجملة، والمعنى يمتد خيوطه بالغة الدقة إلي جملة معاني متفرقة في جملة مواقع، وأن الخيوط التي نسجت هذه الجملة لا تفهم إلا بالتنبيه البالغ اليقظة لهذه المطارح التي جمعتها، وأضمرتها في بنائها) (٣٠).

إدخال جميع المتعلمين في دائرة الحوار من عبقرية الأسلوب النبوي .

يستلزم تعليم المجموعات مهارات إضافية للسيطرة على سير العملية التعليمية تجاه أهدافها ، والوصول بالمعلومات إلى المجموعة كلها على اختلاف درجات فهمهم .

ومع إمكانية تفلت بعضهم ذهنيًا خارج نطاق الحوار يلزم المعلم الناجح اتخاذ تدابير إضافية لعلاج تلك الظواهر، وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تحمل طرقًا

---

(٢٩) البرهان للزركشي جـ: ٣ ص: ٢٩٧ / ت : محمد أبو الفضل إبراهيم / ط : دار المعرفة – بيروت – سنة : ١٣٩١ هـ.

(٣٠) مراجعات في أصول الدرس البلاغة د / محمد محمد أبو موسى ص ١٩٩.

بارعة في التصدي للظواهر السلبية في تعليم المجموعات الكبيرة والمتوسطة تضمنت حركات تعبيرية ، وأساليب بيانية وغيرها .

ومن الأحاديث التي تصدرتها حركات تعبيرية ظهرت على هيئة المعلم ، وأساليب بيانية أدخلت جميع المتعلمين في دائرة الحوار ما ورد عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فَأَتَانَا النَّبِيُّ -ﷺ- فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ؟ قَالَ: أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى) (سورة الليل : الآية :٥) [٣١].

هيئة المعلم شديدة التأثير في جمهور المتعلمين وهيئة النكس، وهو خفض الرأس، والطأطأة بها إلي الأرض، ثم النكت في الأرض، وهو الضرب فيها بقضيب يؤثر فيها، أو إصبع هو كناية عن الهم والانشغال بطارق خطير، والتفكير فيه، وهو ما يتعلق بأهوال القبور وأحوال الناس بين شقي، وسعيد [٣٢]

ودخوله – ﷺ – في هذه الحالة ، وهو الذي ينزل عليه الوحي يُشعر بعظمة ما رأى، وما علم، وهو ما انعكس على جمهور المتعلمين، فاستشعروا الحالة ، وتجاوبوا معه في الحوار.

---

(٣١) صحيح البخاري ج ١ ص ٤٥٨ كتاب الجنائز / باب موعظة الرجل عند القبر وقعود أصحابه حوله/ حديث :١٢٩٦.ت : مصطفى ديب البغا /دار ابن كثير/ سنة : ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

(٣٢) ينظر عمدة القاري ج ٨ ص: ١٨٨.

وتأمل كيف بدأ بأسلوب القصر بطريق النفي، والاستثناء ليخصص، ويقصر كل نفس على مكانها من الجنة أو من النار (ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها) وقد استخدم طريق النفي والاستثناء الذي يستخدم فيما من شأنه أن يكون منكرا من المخاطب أو مشكوكا فيه، وقد سلَّط النفي على الجار والمجرور العائد من كاف الخطاب على المخاطبين ليجعلهم أبطال الحدث وفي هذا ما فيه من سيطرة على عقل المتعلم ووجدانه ؛ لأنه صار المعنيَّ بالحديث(ما منكم).

ثم جاء بـ (من) للاستغراق في قوله (ما منكم)حتى لا يظن أحد المتعلمين أنه خارج دائرة الحوار فيغفل عما سيقال.

ثم قوله :-(ما منكم من نفس منفوسة) بعد قوله :(ما منكم من أحد) يحتمل أن يكون بدلًا من قوله (ما منكم من أحد) فيكون الفصل بينهما لكمال الاتصال، وأيضًا (إلا) ثانيًا بدلًا من (إلَّا) أولًا، ويحتمل أن يكون من باب اللف والنشر ويحتمل أن يكون تعميمًا بعد تخصيص إذ الثاني في كل منهما أعم من الأول، وقوله (ما من نفس منفوسة)(من) بيانيه، ومنفوسة أي مخلوقة وفي العبارة جناس يجذب السمع ويؤكد المعني[٣٣].

وقوله : (اعملوا) من أسلوب الحكيم منعهم عن الاتكال، وأمرهم بامتثال ما يجب على العبد من امتثال أمر ربه وعبوديته عاجلا، وتفويض الأمر إليه آجلا يعني :أنتم عبيد ولابد لكم من العبودية بما أمرتم، وإياكم والتصرف في الأمور الإلهية ؛ لا تجعلوا العبادة وتركها سببا مستقلا لدخول الجنة والنار بل هي أمارات وعلامات ولا بد في الإيجاب من لطف الله أو خذلانه[٣٤].

---

(٣٣) ينظر عمدة القاري ج ٨ ص١٨٧.

(٣٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج ٢ ص ١٢ / الطبعة الأولى/ سنة : ١٣٥٦هـ المكتبة التجارية الكبرى مصر.

والأسلوب بمفهومه من هيئة المعلم بجلوس الرسول- ﷺ - ناكس الرأس ينكت بمخضرته الأرض عند القبور في حضور جنازة يشيع حالة من الرهبة والوجل،.. وبمنطوقه الذي جعلهم دون استثناء أبطال الحديث، وأطراف الحوار سيطر عليهم، وجعلهم في قمة الإدراك، والاستعداد لتلقى المعني، وقبوله، والتفاعل معه إيجابًا ومناقشة جوانبه، حتى يتم استيعابه على الوجه الذي يريد كما حدث في الحديث.

التعليم العملي .

من الوسائل التعليمية الناجحة التي استخدمها الرسول - ﷺ- التدريب العملي بتوجيه المتعلمين لتقليد أفعاله ، وتمثُّل أحواله حيث تثبت المعلومة المنقولة بطريق الممارسة الحية التي تجعلها جزءً من حياة المسلم فقال: (...خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ...) ([٣٥]).

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا مَالِكٌ أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ- ﷺ- وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ- ﷺ- رَحِيمًا رَفِيقًا فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا، أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ قَالَ ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ – وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا، أَوْلاَ أَحْفَظُهَا – وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ)([٣٦])

فقد تضمَّن الحديث وسائل تعليمية كثيرة منها الرحمة والرفق بالمتعلمين ، وتفقد أحوالهم، وتوجيههم للاقتداء به عمليًا : (وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي)، وتكليفهم بالتطبيق العملي لما تعلموه: (فَإِذَاحَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ

---

٣٥ السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي) صاحب الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني) ج : ٥/ ص : ١٢٥/ باب الإيضاع في وادِي مُحَسِّرٍ الحديث (٩٧٩٦) الناشر : مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد/الطبعة : الطبعة : الأولى ــ ١٣٤٤ هـ .

٣٦صحيح البخاري ــ حسب ترقيم فتح الباري - (١ / ١٦٢) باب الأذان لِلْمُسَافِرِ إِذَا كَانُوا جَمَاعَةً وَالإِقَامَةِ / الحديث (٦٣١).

أَكْبَرُكُمْ)، ثم تربية الكوادر، وإعدادها، وتحويلهم من متعلمين إلى معلمين: (فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ) وهذا الأمر يثبت في عقولهم ما تعلموه، ويشعرهم بالمسؤولية .

ومنه ما ورد عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ-ﷺ- أَنَّهُ دَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ وَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا وَذِرَاعَيْهِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ وَظَهْرِ قَدَمَيْهِ ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ أَلَا تَسْأَلُونِي عَمَّا أَضْحَكَنِي ؟ فَقَالُوا مِمَّ ضَحِكْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا بِمَاءٍ قَرِيبًا مِنْ هَذِهِ الْبُقْعَةِ فَتَوَضَّأَ كَمَا تَوَضَّأْتُ ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالَ أَلَا تَسْأَلُونِي مَا أَضْحَكَنِي ؟ فَقَالُوا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَعَا بِوَضُوءٍ فَغَسَلَ وَجْهَهُ حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ خَطِيئَةٍ أَصَابَهَا بِوَجْهِهِ فَإِذَا غَسَلَ ذِرَاعَيْهِ كَانَ كَذَلِكَ وَإِنْ مَسَحَ بِرَأْسِهِ كَانَ كَذَلِكَ وَإِذَا طَهَّرَ قَدَمَيْهِ كَانَ كَذَلِكَ)(٣٧).

والمتأمل للوسائل التعليمية في الحديث من حركات تعبيريةوغيرها يجد أنها حققت أهداف العملية التعليمية بدقة، ويسر، وتشويق فـ(الضحك)حال صدوره من الرسول- ﷺ- كناية عن السرور، والرضا بفضل الله -تعالى- وعظيم كرمه، أما حال صدوره من سيدنا عثمان - ﷺ - فهو كناية عن دقة المتابعة للرسول - ﷺ- والمحبة له، وقد كان لها تأثير من عدة أوجه :

أولا أثرها على جمهور المتعلمين :حيث تركت في نفوسهم أثرًا وجدانيًا عميقًا فرَّغ وجدانهم لما يقع بعدها من دروس تعليمية، وقطعهم عن شواغلهم لدلالة ضحك الرسول – ﷺ – على الخير العظيم، وشدة حبهم لرؤية ابتسامة الرسول- ﷺ -.

(٣٧) مسند أحمد / كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة / باب مسند عثمان بن عفان – ﷺ – / حديث : ٤١٥.

كما أن عدم العلم بسبب الضحك أمر تتعلق بسببه عيون الصحابة وقلوبهم بالرسول – ﷺ – استشرافًا للمعنى، وشوقًا لمعرفة ما وراءه حتى يتم حديثه، فيبلغوا ما أرادوا، وبذلك يحقق الدرس التعليمي غايته، ويبلغهم ما يريد، ويضمن اليقظة والتنبيه للجميع حتى تمام المعنى وترسيخه في نفوسهم على وجه يضمن ثباته، واستمراره بكل جزئياته وهذا ما حققه الأسلوب– فعلا – فسيدنا عثمان – راوي الحديث نقل الحديث بكل دقائقه القولية، والفعلية حيث دعا بماء فتوضأ كما رأي الرسول – ﷺ – يتوضأ (ثم ضحك) حتى أنه لاحظ الأداء الزمني في حديث الرسول –ﷺ– وأدّاه كما أدّاه، فقد ترك فترة زمنية بعد الوضوء قبل أن يضحك تُفهم من قوله (فتوضأ ثم ضحك) وعقب دون فترة زمنية في قوله : (ضحك فقال).

أيضاً استخدم الأسلوب البلاغي نفسه للحض علي السؤال (ألا تسألوني عم أضحكني؟) بغرض تحقيق المتابعة شعورًا منه بالتأثير العالي لأسلوب الرسول – ﷺ – في التعليم.

ثم إنه لاحظ المكان، وشخَّص الحدث خلاله، يدل على ذلك (التكميل البلاغي) في قوله (قريبًا من هذه البقعة) لينقل إليهم المشاعر نفسها التي خالجته عندها، وهو يري الرسول – ﷺ – ويدخل بقلوبهم إلي قلب الحديث، وكأنهم يرونه.

والتشبيه المقلوب في قوله (فتوضأ كما توضأت) أصله فتوضأت كما توضأ ولكن لما كان الحديث يعاد في الذاكرة وعلى لسان الصحابي، وهو يتحدث عن الموقف والمكان الذي وقع فيه الوضوء أعاد الحدث كأنه يحصل حال الحديث عن طريق الصياغة المضارعة التي ألبسها للحديث، فشبهه بوضوئه، والحقيقة أن سيدنا عثمان هو التابع في الوضوء والرسول – ﷺ – الأصل وترتيب المشبه والمشبه به موافق للحكاية باعتبار الزمن المضارع والتشبيه يؤكد أثر الأسلوب

على جمهور المتعلمين في ترسيخ المعنى لديهم وإتقانهم له عملا، وأداءً لغيرهم من الأجيال.

ثانياً :ـ أثر الأساليب التعليمية النبوية على تكوين السياق البلاغي للحديث:

يتمثل أثر الحركات التعبيرية على تكوين السياق البلاغي في عدة أمور منها : أنه بني عليها المتعلم سابقًا والمُعلم لاحقاً سيدنا عثمانﷺ حواره حيث: (ضحك فقال لأصحابه ألا تسألوني عم أضحكني ؟) على سبيل التحضيض لهم للسؤال عن سبب ضحكه بغرض التشويق والتنبيه لما سيقال.

فجاء رد الصحابة سريعًا (مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟) استفهام على سبيل الحقيقة استجابة لتحضيض أميرهم من ناحية ومن أخرى استجابة لدواعي الشوق في نفوسهم لمعرفة السبب.

وقد جاء رد سيدنا عثمان على سؤالهم في صلب المعنى الذي أرصد له بهذه الضحكة (قال رأيت رسول الله – ﷺ – دعا بماء....)

كما كان لها تأثيرها على بناء السياق البلاغي في نص الرسول – ﷺ – فقد بنى عليها الحوار البلاغي بداية بأسلوب التحضيض الذي رفع درجة التشويق (ألا تسألوني ما أضحكني؟) وجاء رد صحابة رسول الله – ﷺ – سريعاً (ما أضحكك يا رسول الله؟) مرتباً على تحضيضه – ﷺ -.

وثمة فرق بين إجابة أصحاب رسول الله – ﷺ – وأصحاب سيدنا عثمان– ﷺ – في صياغة مادة الضحك ففي سياق صحابة الرسول – ﷺ – جاء الفعل (أضحكك) متعدياً والرسول– ﷺ – الذي وقع عليه الفعل – وفيه إشارة إلي أن حركات الرسول– ﷺ –وسكناته بتوفيق من الله ووحي.

وفي إجابة أصحاب سيدنا عثمان (مم ضحكت ؟) الفعل (ضحكت) لازم وفاعله سيدنا عثمان لصدوره منه اقتداء برسول الله– ﷺ –.

وكثافة المؤكدات في بداية الخبر الذي هيئ الرسول – ﷺ – له صحابته بهذه الضحكة تؤكد عظمة الخبر، وتنبئ بطرافته، وتجعل في نفوس المتعلمين قناعة، ومانعاً من الشك، أو الاستبعاد للمعنى خاصة من أولئك الذي عظمت ذنوبهم.

والرسول – ﷺ – وإن كان يخاطب صحابته الأطهار إلا أنه يخاطب بخطابهم كل أجيال الأمة في كل زمان ومكان وفيهم من أثقلته الأوزار حتى بلغت به مشارف اليأس.

أيضاً تفيد هذه المؤكدات العناية، والاهتمام بالخبر، وتنقله للمخاطب بالقدر– أو ما يقارب – الذي يشعر به المُعلم ترغيباً لهم فيه.

أسلوب التشويق بالشرط في قوله – ﷺ – :(إذا دعا بوضوء....) وجوابه (حط الله عنه كل خطيئة...) يدعم سابقه، ويحافظ على طبقة الكلام العالية بالسياق المسيطر على المتعلم من البداية حتى تقرير المعنى المراد.

ذلك أن نفس السامع بعد الشرط تستشرف إلي الجواب، فإذا جاءها، وأدركته تمكَن فيها أيما تمكُن بالإضافة إلي شدة الترابط بين جملتي الشرط الذي يؤذن بقوة اتصال المعنى .

وقد قرر الرسول – ﷺ – المعنى الذي أرصد له من بداية الحديث بهذا الأسلوب التعليميالراقي، ليقرر نقاء المتوضأ من خطاياه بالوضوء كلما أحدث ذنبًا طهَره وضوء حتى يلقي ربه طاهرًا نقيًا.

وهكذا نرى أثر الحركة التعبيرية (الضحك) من بداية العملية التعليمية حيث مهَّدت للمعني نفوس المتعلمين، ورفعت درجة التشوق، والتنبيه للمعنى قبل ذكره، وسرت معه سرياناً حثيثاً حتى وافي تمامه حيث أسهمت في تشكيل السياق

البلاغي، وفي الختام ضمنت للخبر الذيوع، والانتشار محمولا على أجنحة الخبر الطريف على نحو ما رأينا من حال سيدنا عثمان.

ولا يخفى أثر التطبيق العملي للمعاني التي قررها الحديث ، فمن المعلوم أن إدراك المعنى بأكثر من حاسة يزيدها تقريرًا ورسوخًا .

ومن الأحاديث التي تصدرتها الحركات التعبيرية (الضحك)ما ورد عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – قَاعِدٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ ضَحِكَ فَقَالَ أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمِمَّ تَضْحَكُ ؟ قَالَ عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللَّهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلَّا الْمُؤْمِنُ)(٣٨).

والمعني الذي يتناوله الحديث هو كل ما يلاقيه الإنسان في الحياة متقلباً بين الخير والشر محققاً للمؤمن – دون غيره – سعادة النفس، وطمأنينة القلب في كل حال، وأكثر متاعب البشر لا تخرج عن هذا المعنى ؛ لذلك حشد له– ﷺ – بهذه الضحكة نفوس الصحابة – ﷺ وهي كناية عن سعادته، وفرحه بفضل الله على أمته، وما اختص به المؤمنين.

الحركات التعبيرية (الضحك) في أثناء الحديث، وفي نهايته، وأثرها

ورد الضحك أثناء الحديث للمحافظة على درجة معينة من يقظة المتعلمين أو رفعاً لدرجة التشويق في النفوس أو التنبيه لمعنى جديد استدعاه الحوار .

من ذلك ما ورد عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كِنَانَةَ بْنِ عَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيُّ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ –ﷺ – دَعَا لِأُمَّتِهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ بِالْمَغْفِرَةِ فَأُجِيبَ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ مَا خَلَا الظَّالِمَ فَإِنِّي آخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنْهُ قَالَ أَيْ رَبِّ إِنْ شِئْتَ أَعْطَيْتَ الْمَظْلُومَ مِنَ الْجَنَّةِ وَغَفَرْتَ لِلظَّالِمِ فَلَمْ يُجَبْ عَشِيَّتَهُ فَلَمَّا أَصْبَحَ بِالْمُزْدَلِفَةِ أَعَادَ الدُّعَاءَ فَأُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ قَالَ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ قَالَ تَبَسَّمَ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي إِنَّ هَذِهِ لَسَاعَةٌ مَا كُنْتَ تَضْحَكُ فِيهَا فَمَا الَّذِي أَضْحَكَكَ أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ قَالَ إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ

(٣٨) مسند أحمد / جـ : ٦ / ص : ١٦ / كتاب مسند المكيين / باب حديث صهيب بن سنان / حديث : ٢٣٩٧٥.

اللَّهَ- عَزَّ وَجَلَّ- قَدِ اسْتَجَابَ دُعَائِي وَغَفَرَ لِأُمَّتِي أَخَذَ التُّرَابَ فَجَعَلَ يَحْثُوهُ عَلَى رَأْسِهِ وَيَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ فَأَضْحَكَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ جَزَعِهِ)[٣٩]"

وضحكة الرسول- ﷺ – كناية عن فرحه بنصر الله، وقد توسطت الحديث، فربطت سابقه بلاحقه، وبنى عليه الحوار بين الصحابة والرسول- ﷺ – وجاءت بمثابة التنبيه إلى خير يُنتظر، وأثارت علامات الاستفهام عن سرها الذي أرصد الرسول -ﷺ- له بهذه الضحكة التي عكست سروره بنصر الله – تعالى – بالمغفرة لأمته، وهو معنى من الأهمية بمكان ؛ لأن غاية الرسل تعبيد الناس لربهم، وتطهيرهم من خطاياهم حتى يعودوا إلي الجنة، والمغفرة هي السبيل إلي ذلك. وقوله – ﷺ – (أخذ التراب فجعل يحثو على رأسه) كناية عن الحسرة والخزي والحزن الذي لحق عدو الله إبليس حين علم أن الله – ﷻ – غفر لأمة محمد- ﷺ – جميعًا، وقد رأى جهده على مدى السنين في إغوائهم يذهب في لحظةٍ هباءً.

سكوت المعلم في أثناء الحديث، وأثره على المتعلمين .

قد يكون السكوت في بعض المواقف التعليمية ذا دلالة أبلغ من الكلام وقد يفيض بمعان تثري سياق الكلام وتتم غرضه، وتحقق إيقاظ المتعلمين، وتنبههم، وتشوقهم لمعرفة سببها ، وهو ما نجده في حديثه عَنْ أَبِي بَكْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: خَطَبَنَا النَّبِيُّ – ﷺ – يَوْمَ النَّحْرِ قَالَ :(أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ :أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا بَلَى قَالَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ فَقَالَ أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ؟ قُلْنَا بَلَى قَالَ أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ :أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟ قُلْنَا بَلَى قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا نَعَمْ! قَالَ اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ

(٣٩) سنن ابن ماجه / جـ : ٢ / ص : ١٠٠٢ / كتاب المناسك / باب الدعاء بعرفة / حديث : ٣٠١٣.

الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ)[٤٠].

استثمر الرسول -ﷺ- الظرف المكاني للحديث في البيت الحرام والظرف الزماني في يوم عرفة بما يحقق سرعة التعلم، ويحقق الإقناع حال اجتماع الناس لفريضة الحج، وهي أمور تجعل النفوس أكثر قبولًا للموعظة وإذعانًا للأمر وانقيادًا له.

وقد استخدم الرسول -ﷺ- أسلوب الاستفهام متعدد الأغراض تحديدًا للخطوط العريضة لمنهج المسلم تجاه أخيه حفاظًا على عرضه، ودمه، وماله، وقد صعَّد الشعور بالهيبة، والإجلال عن طريق الاستفهام درجة بعد درجة ليبني من خلاله في النفوس حاجزًا إثر حاجزٍ يمنعها من انتهاك هذه الحرمات الأمر الذي يحقق حماية المسلم، ويجعل له من إخوانه من حوله حُرَّاسًا لدمه، وعرضه، وماله.

وقد جاء السكوت فيما بين هذه الاستفهامات ليجلّي لنا وجهًا من وجوه عبقرية الرسول - ﷺ - في بناء الأسلوب الراقي في التعليم والتربية حيث ترك جموع المخاطبين بعد كل استفهام يذهبون بعقولهم كل مذهب عن سبب السكوت من ناحية وعن سبب السؤال من أخرى مع تنشيط العقول الخاملة وتنبيه المنشغلة وحشد البقية الباقية من التي لم تستعد بعد لاستقبال المعنى الجليل وإعمالها فيه ، وهو من عبقرية سياسة الجموع الغفيرة عند التعليم والتربية .

يدلك على ذلك قول الصحابي :(حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه) مع تعبيره بنون الجمع متصلة بالفعل في قوله :(ظننا) الذي يدل على عموم الأثر الذي أحدثته الحركات التعبيرية في وجدانهم، مع استخدامه (حتى) إشارة إلى بلوغ الأمر مداه. و(سؤاله -ﷺ- عن الثلاثة وسكوته بعد كل سؤال منها كان

(٤٠) صحيح البخاري / جـ : ٢/ ص : ٦٢٠ / كتاب الحج / باب الخطبة أيام منى / حديث :١٦٥٤.

لاستحضار فهومهم وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا (فإن دماءكم ...الخ) مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء)[٤١]. فسكوت الرسول – ﷺ – مقصود لفائدة، وقد جاء مطابقاً لمقتضى الحال، وهو من البلاغة عينها ؛ لأن الناس في الزحام يحتاجون إلى فضل تنبيه، بالإضافة إلى عظمة المعنى الذي استدعى حشد الطاقات لاستقباله؛ لأنه أجلُّ من أن يستقبله غافل.

المبحث الثاني
استخدام الخط والرسم في التعليم والتواصل .

سعى الإنسان منذ أقدم العصور إلى البحث عن الوسائل التعبيرية التي يستطيع أن يتواصل من خلالها مع غيره ممن هم في جماعته التي تتحدث لغته، أو مع غيرها من الجماعات اللغوية ، واستعان في ذلك بكثير من الوسائل التعبيرية التي يمكن

(٤١) ينظر فتح الباري لابن حجر / جـ : ١ / ١٥٩.

أن تحقق له هذا التواصل ، فقام بمحاكاة الأصوات، وتقليد الحيوانات ، واستخدم الإشارات ، واستخدم العبارة ، والخط ، والرسم ، وغيرها من الوسائل التي تحقق التواصل بينه وبين غيره .

وما زالت هذه الوسائل في تطور مع تقدم الجنس البشري بما يتوافق مع متطلبات كل عصر ، وتبارى العلماء في محاولة حل مشكلات التواصل خلال وضع النظريات العلمية، والبحث في طرق التعبير،وهم في ذلك بين مقصر ومبرِّز، وبين محسن ومسيء، وبين ما هو واقعي وجانح إلى الخيال.

ومشكلات التعليم والتواصل مع الآخرين تتمثل في القدرة على تبليغ المعاني المقصودة لأفراد أو مجموعات بينها تفاوت في درجة الفهم والاستيعاب، وتحتاج إلى وسائل مختلفة لإتمام عملية التوصيل.هذه الوسائل قد تتوفر لبعض الناس ولا تتوفر للآخرين وقد تنجح في تحقيق الغرض، وقد لا تنجح في .

والرسول –ﷺ–قد عالج في أساليبه المشكلتين ببساطة شديدة ودقة عالية حيث استخدم مقومات البيئة المعروفة للجميع في التنبيه للمعاني قبل بداية العملية التعليمية، وتقريرها في أثناء ذكرها، وتثبيتها بعد تقريرها لارتباطها في الذهن بأشياء محسوسة .

ومن الوسائل الحسية التي استخدمها في تقرير المعاني الخط ، والخَطُّ الطريقةُ المُسْتَطِيلةُ في الشيء والجمع خُطُوطٌ ... ويقال الكَلأُ خُطوطٌ في الأَرض أَي طَرائقُ لم يَعُمَّ الغَيْثُ البلادَ كُلَّها ...والخَطُّ الطريق يقال الزَمْ ذلك الخَطَّ ولا تَظْلِمْ عنه شيئاً... والتَّخْطِيطُ التَّسْطِيرُ تقول خُطِّطَت عليه ذنوبُه أَي سُطِّرت ([٤٢]) .

وإذا كان من معاني الخط الكتابة فمن الجدير بالذكر أن المقصود بالخط في حديث الرسول – ﷺ – غير الكتابة لأنه كان أميا لا يقرأ، ولا يكتب لحكمة أرادها الله،

٤٢لسان العرب / مادة : (سطر) جزء ٧ – صفحة ٢٨٧ بتصرف .

قال تعالى: (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)(سورة: العنكبوت – الآية: ٤٨)

وعلى ذلك، فالمقصود بالخط في الحديث النبوي هو الرسم التوضيحي المقرب للمعنى في أثناء الحديث عن طريق الخط على التراب، أو الرمل بالإصبع، أو العود، وهذا الشكل من الخطوط معروف في الجاهلية عند الأميين في البيئة العربية .وقد استخدم الرسول- ﷺ – الخط كرسم توضيحي مقرب لبعض المعاني الذي أراد تحقيقها في دقة وبراعة بلغت بالمعنى قلب المتعلمين دون إخلال تساوى في فهمه مختلف العقول مع ما بينها من تفاوت وتلك ميزة من ميزات الأسلوب النبوي الذي بلغ الذروة في البيان والوضوح مع الجلال ، والجمال من ذلك ما روى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ –رضي الله عنه–قَالَ : خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ وَقَالَ:(هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا([٤٣]).

الدرس الذي يعلمه النبي- ﷺ – لأمته خلال الحديث والذي عبَّر عنه الخط في هذا الحديث درس في غاية العمق حيث إنه يمثِّل صراع البشر في الحياة بين أجل محدود في عمر معدود، وبين آمال كثيرة وأحلام عسيرة يلهث خلفها معظم البشر حتى يدركهم الأجل .

وقد صوَّر هذا الصراع بصورة تكشف أبعاده، وتظهر جوانب الخطر فيه، ثم قرر النتيجة الحتمية من هذا الصراع ، والتي تؤكد إحاطة الأجل، وتشعب الأمل ، وأن الإنسان لن يدرك كل آماله ، ومن ثَم فعليه أن يرضى بما قسم له، وينشغل

٤٣البخاري /جـ٥ /ص: ٢٣٥٤/ كتاب الرقاق / باب في الأمل وطوله/ ٦٠٥٤ .

بالإعداد لما بعد الموت . وتشبيه الرسول -ﷺ- لحال الإنسان مع أجله، وأمله بالخط المربع، والخط الخارج في وسطه والخطوط الصغار حوله يقرر معنى طول أمل الإنسان وتقاصر الأجل عن استيعابه والإنسان بينهما عرضة لنهش الأعراض إن نجا من عرض نهشه عرض آخر، وإن نجا منها أدركه أجله لا محالة .

واستخدام الرسول - ﷺ - لهذه الوسيلة في التعليم يحقق مجموعة من الأغراض : منها تقرير المعنى في ذهن المتلقي لاعتماده على حاستي البصر مع السمع ، وهو ما يحقق الوصول بالمعنى إلى مختلف الأفهام لاعتمادها على المشاهدة ؛ فيثبت المعنى في ذهن المتلقي بالإضافة إلى التشويق الذي تحققه الرغبة في رؤية المرسوم والغرض منه.

وقد كشف هذا الرسم بهذه الطريقة البسيطة معاني عظيمة منها : أن الإنسان في خطر دائم لا ينفك عنه ،ثم إنه محاط بأجله مما يؤكد استحالة الانفلات عن هذه الدائرة الأمر الذي يستلزم الجد وعدم الركون للدنيا، كما يؤكد قصر العمر مما يدعو إلى اليقظة، وحسن استغلاله في الباقيات الصالحات.

وقد تضمنت هذه الوسيلة التعليمية الدقيقة في الخط النبوي صورة أخرى بالاستعارة حيث استعار النهش، وهو لدغ ذات السم لحدوث الآفات التي تصيب الإنسان مبالغة في الإصابة، وشدة الألم ،وسرعة القضاء على من أدركه هذا العرض لأن الملدوغ يتسارع إليه الفناء، والحديث بتركيبه يقرر المفارقة بين طول الأمل وقصر الأجل، وشدة الغفلة، وعظم الخطر وهو في جملته دعوة إلى الزهد، وعدم الركون إلى الدنيا ([٤٤]).

كما استخدم الخط على الأرض ليقرر معنى الاستقامة ، وأنها لزوم طريق الله المستقيم وعدم سلوك غيره من طرق الشياطين الكثيرة التي تجذب الإنسان إليها

---

٤٤)ينظر شرح الحديث في تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي / المباركفوري / جـ ٧ / ص : ٢٧ / دار الكتب العلمية – بيروت .

لتضله عن سبيل الله المستقيم فقد ورد:(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يَوْمًا خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ :(هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ثُمَّ تَلَا:(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)(٤٥).

ومن الملاحظ في تعبير الصحابي بضمير الجمع (لنا) أن استخدم تلك الوسيلة في التعليم والشرح والتوضيح كان للمجموع لتعم الفائدة ، واستخدامه أداة الربط (ثم) تشير إلى فترة زمنية قد تقصر أو تطول قليلًا يعطي فيها فرصة للمتعلمين للتأمل في الخطوط ورؤية تفاصيلها؛ هذا التأمل سيرتب عليه شرحه وتوضيحه للمعنى الذي يريد تقريره.

وتعريف المسند إليه بالإشارة في قوله (هذا سبيل الله) لتمييزه أكمل تمييز لصحة إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة حسا ، وهو يركز نظر المتعلمين على الوسيلة المستخدمة حتى يتحقق الغرض المنشود منها .وجمع طرق الشيطان وإفراد طريق الله في المخطوط يقرر بصورة محسوسة أن طريق الحق واحد مستقيم ، وطرق الباطل كثيرة متشعبة لكنها تجتمع جميعًا في هدف واحد وهو إبعاد المؤمن عن طريق الله المستقيم والوسيلة المستخدمة تنطق بهذه الدلالة حيث يراها المتعلمون بأعينهم فيما يسمعون التوضيح من الرسول -ﷺ-.

وإضافة لفظ (سبيل) إلى (كل) في قوله : (عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ) يفيد عموم الحكم الذي يظهر إحكام الشيطان لطرق الغواية حتى لا يتفلت أحد ممن سار فيها من شَرَكِه.والتعبير بالفعل المضارع (يدعو) يصور الحدث ويستحضر صورة الشيطان في الأذهان يزين لأهلها الضلالة .

---

٤٥)سنن الدرامي / المقدمة حديث :٢٠٤ / ترقيم العالمية .

ومجمل درس الرسول -ﷺ-ورسمه لطريق الله المستقيم وما حوله من طرق الشيطان يوحي بعدة دلالات منها : الإشارة إلى وضوح الطريق؛ لأن العين تستطيع أن ترى منه مد البصر بعكس المتعرج؛ فإن البصر ينتهي منه عند أول تعريج، ويصير ما بعده مجهولًا مما يجعله عرضة لكل متربص مع احتمال التيه والضلال إذا كثرت تلك التعريجات، كما أن كثرة الطرق حول الخط المستقيم تشير إلى كثرة سبل الضلال، وتشعبها مع الإشارة إلى إمكانية الضلال، وكثرة المغريات يفهم ذلك من كثرة الطرق مع وجود الشيطان على كل طريق يزينها ليخدع الناس([٤٦]).

---

٤٦ ينظر بحث (أثر البيئة في اتساع مدلول التشبيه)(دراسة تطبيقية في الحديث النبوي)د / ناصر راضي الزهري إبراهيم بحث منشور في مجلة كلية الآداب / جامعة سوهاج / الجزء الأول العدد ٢٩– لسنة ٢٠٠٦م .

المبحث الثالث
استخدام الحيوان والطير وأعضاء جسم الإنسان في التعليم

من معطيات البيئة التي استخدمها النبي – ﷺ – الحيوانات والطيور فوظف كثيرًا من أحوالها في تقريب بعض المعلومات وتوضيح بعض المبهمات ، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه في معاشهم ، ومعادهم .

وقد ارتبطت عملية التعليم عن طريق هذه الكائنات بالتشبيه الذي يصور بعض هيئاتها، وأحوالها ليوضح معنى، أو يقرب فكرة .

من الصور المركبة التي استخدم فيها الحيوان، وانتزعها من البيئة،فتميزت بالدقة والعمق، والتي استعان بها الرسول– ﷺ – لنقل مشهد غيبي من أهوال القيامة وتقريبه للمتعلمين مع ما يضفيه على المعاني من مشاعر معينة خلال الصورة ما روى عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله – ﷺ – يَقُولُ(.... يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ)[٤٧]

عبقرية الرسول –ﷺ– في التعليم ونقل المعاني الدقيقة في سرعة ووجازة ويسر تتجلى في هذا الحديث الذي استخدم فيه هيئة الحيوان في صورة معروفة مألوفة لدى جمهور المتعلمين ، وهي صورة الحمار الذي يدور بالرحى ، حيث شبَّه بها دوران الآمر بالمعروف،وهو لا يأتيه الناهي عن المنكر، وهو يأتيه حال كونه في النار فقرر بهذه الصورة عدة دلالات منها : أن التعبير بالدوران يوحي

٤٧ صحيح مسلم /جـ : ٣ ص : ١١٩١ / كتاب (الزهد والرقائق) باب (٧) حديث (٣٠٩٤).

بامتداد العذاب، وعدم تناهيه ؛ لأنه دوران حول النفس، والدائرة ليس لها طرف يمكن أن ينتهي عندها، أو غاية يصل إليها بالإضافة إلى الفضيحة بين الناس ؛ لأن المتحرك يراه الكثير بعكس الثابت في مكانه .

ثم إن إضافة الدوران للحمار يفيد اليأس من الخروج من هذه الحال؛ لأن الحمار معروف بالغباء والبلادة ،ولن يستطيع الخروج إلا إن أخرجه صاحبه، وهي في جانب المشبه تشير إلى أن هذا الشقي المعذب لا يستطيع أن يخرج نفسه مما هو فيه إلا إن عفا عنه ربه .

وتشبيه دوران هذا العالم غير العامل في النار بدوران الحمار خاصة فيه إشارة إلى قوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)(سورة: الجمعة – الآية: ٥) .؛لأنهم لم يقدروا قيمة ما يحملون من العلم ،ولم يعملوا به؛فصاروا بذلك أسوء حالا من الحمار،لأن الحمار يدور في الأرض،وهم يدورون في النار.

وتعلق الجار،والمجرور (برحاه)بالفعل (يدور) يزيد الموقف هولًا ،والصورة بشاعة ،وهي في جانب المشبه تشير إلى شدة ألم هذا الشقي؛لأنه كان في الدنيا يدور في الناس يأمرهم، وينهاهم، والناس ينظرون إليه نظرة، وقار، واحترام ، وقد خالف قوله عمله؛ فكان قوله في اتجاه، وفعله في اتجاه يأمر بالمعروف ،ولا يأتيه ،وينهى عن المنكر ،ويأتيه؛ فجاء جزاؤه من جنس عمله حيث تدلى جوفه الفارغ من دبره للخلف، وأسرعت خطاه الحمقاء إلى الأمام في صورة دائرية يوحي فيها بناء الفعل (يُجاء) والفعل (يُلقي) للمجهول بالحمل على الفعل ،والإكراه عليه ،وكل كريه للنفس تساق إليه سوقاً .

أما بناء الفعلين (تندلق) و (يدور) للمعلوم فللإشارة إلى حصولهما منه ، فاندلاق الأمعاء إثر انفجار الحاجز ، وهو أمر تحدثه القذفة ، والدوران بها إثر

الصدمة ،وهو أمر تحدثه الفواجع ،ويحدث تلقائيا عند المباغتة ، أما أنها لم تقترن بالتسويف مع أنها أمور أخروية مستقبلة ؛ فذلك لاستحضارها في الحال كأنها تدرك، وتحس[٤٨]

وإضافة الرحى للحمار في قوله (برحاه) تشير إلى اختصاصها به، وفي جانب المشبه به تفيد الإضافة في قوله :(أقتابه)([٤٩]) استحالة الخلاص منها لأنها جزء منه.

والمتأمل لدلالة التشبيه يجد أنها اتسعت باتصالها بمدلولاتها في بيئة المخاطبين ،فالحمار في عرف العربي علم على البلادة ،والتشبيه به من قبيل الذم ، ودورانه دليل على التسخير ،والإهانة ،وتعلق الرحى به دليل عناء، وشقاء لما هو معلوم من ثقلها،وصعوبة استخدامها .

والحديث نموذج عبقري لعملية التعليم والتوصيل لأعمق المعاني بطريقة سهلة تصل إلى مختلف الأفهام دون عناء يكد ذهن المتعلم ؛ لأنه استعان بهيئة من واقع بيئة المتعلمين،وقد عرض المعنى عن طريق الصورة التي تتخيلها العقول وتعيشها خلال الحديث .

والتشبيه بجملته درس عميق لكل شخص يقول ما لا يفعل أو يفعل ما ينهى عنه ، حيث تلقى دفقة من الترهيب، والتحذير بالصورة، والصوت،والحركة نقلت أدق خصوصيات الموقف الرهيب .

تلك بلاغة الرسول في استحضار المغيبات ،وتجسيمها[٥٠] بالصورة ، وبالحركة ، والحوار . حتى كأن جمهور المتعلمين يشاهدون بأعينهم ،ويسمعون بآذانهم

---

(٤٨)انظر (الحديث النبوي من الوجهة البلاغية) د عز الدين على السيد صـ ١٦٣ . بتصرف بسيط .

٤٩ القَتَبُ : إكافُ الجَمَل والتَّذكيرُ فيه أعمُّ من التأنيث ولذلك أنَّثوا المصغر فقالوا :قُتَيْبة ...و تُجَرُّ أقتابُه أي أمعاؤه الواحدُ قِتْبٌ (ينظر كتاب العين / جـ ٥ / ص : ١٣١ت : د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي / لناشر : دار ومكتبة الهلال .

صورة هذا العالم الشقي ،ويسمعون حواره مع أهل النار؛ لأنه من وادي معانيهم، وواقع بيئتهم ؛ فيبقى حديثه بين أعينهم ما بقيت أرواحهم فيهم يطارد في أنفسهم شبح الكسل عن العمل بعد العلم ،وشبح الرياء بعد العلم،والعمل حتى يكون العمل خالصا صوابا.

ومن استخدام الحيوان في التعليم ما ورد في الحديث من تشبيه بالفحل بالنظر إلى أهم خصائصه في بيئته ،وهي القوة ،وفرض السيطرة فشبَّه نهش الثعبان بقضم الفحل في صورة امتزجت فيها عناصر الحركة، والصوت، واللون.

فقد نقل الرسول -ﷺ- كثيراً من مشاهد الآخرة بغرض ترسيخ الغيبيات التي تتصل بعقيدة المسلم ترغيبًا أو ترهيبًا عن طريق الصورة التي ترصد أدق التفاصيل التي تحقق الغرض عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ ،وَلَا بَقَرٍ، وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهَا إِلَّا أُقْعِدَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَطَؤُهُ ذَاتُ الظِّلْفِ بِظِلْفِهَا، وَتَنْطَحُهُ ذَاتُ الْقَرْنِ بِقَرْنِهَا لَيْسَ فِيهَا يَوْمَئِذٍ جَمَّاءُ وَلَا مَكْسُورَةُ الْقَرْنِ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا حَقُّهَا قَالَ إِطْرَاقُ فَحْلِهَا ،وَإِعَارَةُ دَلْوِهَا ،وَمَنِيحَتُهَا ،وَحَلَبُهَا عَلَى الْمَاءِ، وَحَمْلٌ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،وَلَا مِنْ صَاحِبِ مَالٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ إِلَّا تَحَوَّلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ يَتْبَعُ صَاحِبَهُ حَيْثُمَا ذَهَبَ وَهُوَ يَفِرُّ مِنْهُ ،وَيُقَالُ هَذَا مَالُكَ الَّذِي كُنْتَ تَبْخَلُ بِهِ فَإِذَا رَأَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي فِيهِ فَجَعَلَ يَقْضَمُهَا كَمَا يَقْضَمُ الْفَحْلُ)(٥٠)

---

(٥٠)(التجسيم) : وهو أن يحيل المعنويات إلى محسوسات ، امعانا في إبراز التجربة إلى حيز الوجود ، وتأكيدًا للعلاقات الجديدة بين الألفاظ ....ووراء هذا التجسيم دافع نفسي عميق (التجربة الابداعية في ضوء النقد الحديث – دراسات وقضايا) د – صابر عبد الدايم صـ ١٢٠ الطبعة الاولى سنة ١٤٠٩ هـ ١٩٩٠م مكتبة الخانجي القاهرة.

٥١صحيح مسلم /كتاب الزكاة / باب: اثم مانع الزكاة / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي/ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

تشبيه الرسول -ﷺ- نهش الشجاع الأقرع بقضم الفحل، يعطي المشهد أبعادا إيحائية تزيده هولا ،وتحدث رهبة في قلب المخاطب تجعله أحرص على اتقاء أسبابها ،والبعد عن كل ما يؤدي إليها، وبمراجعة المشبه به في البيئة يتضح لنا ما يلي : تشبيه نهش الثعبان بالقضم يشير إلى السرعة في النهش مما يعني انعدام الأمل في تفادي القضمة، وإضافة القضم للفحل تفيد التأكيد على قوة القضم لما هو معروف في البيئة من أن الفحل هو الذكر القوي في الحيوانات ، والإشارة إلى شدة التأثير في جسم المعضوض لكبر فك الفحل مما يشير إلي سعة دائرة الإيلام ، كما أنها تشير إلى استمرار الألم ؛لأن الفحل حيوان ليس له عقل يفكر، أو قلب يرحم إلا بالغريزة الموجهة له، وهي حال القضم غريزة غضبية تزيد القضمة قوة، وفيها إشارة إلى تتابع القضمات لما هو معروف من أن الفحل لا يكتفي بالقضمة الواحدة كما يشير التعبير النبوي في قوله (فجعل)التي تفيد الانتقال المرحلي من الاتباع إلى القضم ، ثم صياغة الفعل في صورة المضارع (يقضمها) الذي يستحضر الحدث، ويفيد التجدد، وكذلك الفعل(يتبع) وكل هذه المعاني تجتمع لكي تحقق في النهاية غرض الصورة التشبيهية بتقرير عذاب مانع الزكاة، والمبالغة في الترهيب من الفعل بما يدفع المخاطب إلى اتخاذ موقف إيجابي بالمسارعة بإخراج زكاة مال الذي يراه خلال الصورة التشبيهية ثعبانا عظيمًا يوشك أن يدركه بقضمة فحل .

ومن الحيوانات التي استخدمها الرسول -ﷺ-في التعليم وتقرير المعاني الغيبية عن طريق التشبيه المنتزع من البيئة ما جاء عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -ﷺ- قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- : (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ !هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ! فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ!هَذَا الْمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ ،ثُمَّ يَقُولُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ

فَلَا مَوْتَ ،وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ، ثُمَّ قَرَأَ(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلُ الدُّنْيَا(وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (٥٢)

هيئة الإتيان بالموت وذبحه أمر غريب ومعنى غير معهود لدى جمهور المتعلمين،والكبش الأملح معروف لكل عربي ،واستخدامه في التعليم والتقرير، وتشبيه الإتيان بالموت به يقرِّبه، ويؤكده وبالعودة بالتشبيه إلى البيئة تتضح عدة دلالات : منها أن الصورة واضحة أتم الوضوح في البيئة،والمعنى المجسممن خلالها وهو موت الموت انتقل من الغرابة والاستبعاد إلى الأنس،والقرب بمباشرتهم للذبح ، واختيار الكبش كذبيح إشارة إلى انقياده مع سهولة السيطرة عليه بالنسبة لهم ؛لأنه أيسر في الذبح ، وقيل : الحكمة في كونه على هيئة كبش لأنه جاء أن ملك الموت أتى آدم عليه الصلاة والسلام في صورة كبش أملح قد نشر من أجنحته أربعة آلاف جناح (٥٣).

قال القرطبي: الحكمة في الإتيان بالموت هكذا الإشارة إلى أنهم حصل لهم الفداء به كما فدى ولد إبراهيم بالكبش وفي الأملح إشارة إلى صفتي أهل الجنة والنار؛لأن الأملح ما فيه بياض وسواد.(٥٤)، والحكمة في كون الكبش أملح ،وهو الذي فيه بياض ،وسواد، أن البياض من جهة الجنة والسواد من جهة النار،لأنه يخاطب بالمشهد الجانبين .

وقوله (فيذبح)تأكيد لموت الموت لا يبلغه شك لحقيقة نهاية الموت،وتقرير عملي يُرى عيانًا لتأكيد فكرة الخلود، وهو معنى تقرر في أذهانهم بإلحاقه بصورة الذبح المعروفة لديهم.

---

٥٢ صحيح البخاري / جـ : ٤ ص: ١٧٥٩/ كتاب تفسير القرآن / باب {وأنذرهم يوم الحسرة } حديث :٤٤٥٣.

٥٣ ينظر عمدة القاري /جـ ١٩/ ص: ٧٤ .

٥٤تحفة الأحوذي / جـ : ٧ / ص : ٢٣٤.

وعن حقيقة ذبح الموت قال الإمام العيني : فإن قلت الموت عرض ينافي الحياة أو هو عدم الحياة فكيف يذبح قلت يجعله الله مجسمًا حيوانًا مثل الكبش ،أو المقصود منه التمثيل وعن ابن عباس ومقاتل والكلبي أن الموت ،والحياة جسمان، فالموت في هيئة كبش لا يمر بشيء،ولا يجد ريحه شيء إلا مات،وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بلقاء،وهي التي كان جبريل،والأنبياء عليهم الصلاة ،والسلام يركبونها خطوها مد البصر فوق الحمار،ودون البغل لا يمر بشيء ،ولا يجدر ريحها إلا حيي، وهو الذي أخذ السامري من أثرها فألقاه على العجل فإن قلت من الذابح للموت قلت يذبحه يحيى بن زكريا -عليه السلام- بين يدي النبي ،وقيل الذي يذبحه جبريل-عليه السلام-(٥٥).

٥٥ ينظر عمدة القاري /جـ ١٩/ ص: ٧٤ .

ومن استخدام الحيوان في التعليم والتربية وتقرير المعاني ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ،وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ،وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ،ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ)([٥٦]).

وبالنظر في حال المشبه به يتبين مدى عظمة صدقة المتصدق، وحفاوة الله بها يفهم ذلك من معاملة العربي لفلوه ،وهو من كرائم ماله، ووسيلة رفاهيته ،ودليل عزه، وحب الخيل في طبع البشر، وقصة سيدنا سليمان فيها دليل على ذلك قال تعالى :(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)(سورة ص الآية ٣١ :٣٢) وتشبيه حفاوة الله بصدقة المتصدق بها يقرر هذا المعنى ،ويثمّن غالياً قيمة الصدقة ترغيبا فيها لما تحققه من التكافل والتحابب الذي يقرب بين طبقات المجتمع ،وأفراده .

كما استخدم الطير ، وأجزاءه في عملية التعليم لكمال إدراك المتعلمين له مما يسهم في سرعة استيعاب المعاني، ورسوخها في الذهن فجاء تصويره لحال القلب في سرعة تحوله وعدم استقراره بالريشة في الفلاة فيما ورد (عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الرِّيشَةِ تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحُ بِفَلَاةٍ)([٥٧]).

ومن الملاحظ في الحديث التكامل في استخدام الوسائل التعبيرية بين عناصر البيئة لتحقيق غاية التبليغ بالوصول بالمعاني المقصودة إلى مختلف الأفهام ، والحديث يصور حال القلب في تبدله من الخير إلى الشر، ومن الطاعة إلى المعصية بحال الريشة في مهب الريح تقلبها في كل اتجاه لا يمنعها شيء صورة مركبة تتعدد

---

٥٦ صحيح البخاري / جـ ٦ ص : ٦٩٩٣ كتاب الزكاة / باب قول الله تعالى (تعرج الملائكة والروح إليه) / حديث ٢٧٠٢ .

٥٧ سنن ابن ماجة / لمحمد بن يزيد أبي عبدالله القزويني / المقدمة /باب القدر/ حديث :٨٨ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / الناشر : دار الفكر – بيروت.

فيها الحركات في اتجاهات متضادة يقول الإمام عبد القاهر (وأما هيئة الحركة مجردة من كل وصف يكون في الجسم فيقع فيها نوع من التركيب ، بأن يكون للجسم حركات في جهات مختلفة نحو أن بعضها يتحرك إلى اليمين ،والبعض إلى الشمال ،وبعض إلى فوق ،وبعض إلى قدَّام ونحو ذلك ،وكلما كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد كان التركيب في هيئة المتحرك أكثر)([٥٨])

وبإدراك جمهور المتعلمين لخصائص الصورة يتقرر في أذهانهم عدة معانٍ منها : الإشارة إلى اتساع الدنيا ،وتشعبها مما يجعل التيه فيها أمرًا ممكنًا يفهم هذا المعنى من حال الفلاة ،واتساعها، وإمكان التيه فيها مما يعني الهلاك إلا على بصير بدروبها خبير بشعابها ،وهم قليل ، ومنها : الإشارة إلى تعدد أخطار الدنيا ،وتعرض الإنسان فيها لمختلف الأعراض من مرض ،أو فقر ، وهرم ،أو موت يفهم ذلك من كثرة أخطار الفلاة من وحوش وسباع ،وانقطاع للطعام ،والشراب، وغيرها.

٥٨ أسرار البلاغة / الإمام عبد القاهر ص : ١٨٢.

ومنها : الإشارة إلى سرعة تقلب القلب ،وعدم ثباته على طاعة ،أو معصية مما يستلزم الاستعانة بالله تعالى لتثبيته، ولذلك (كَانَ رَسُولُ اللَّه -ﷺ- يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ(يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوب ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ (قال أنس) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ) (٥٩).

قال الشاعر:

ما سُمِّيَ القَلبُ إِلّا مِن تَقَلُّبِهِ وَالرَّأيُ يُصرَفُ والأَهواءُ أَطوارُ(٦٠)

ويفهم هذا المعنى في الصورة من خفة الريشة، وانعدام الوزن الذي يحقق لها الثبات بالإضافة إلى عدم اتصالها بشيء يجعل لها نوعًا من الثبات باتصالها به،وهي أخف شيء في الطائر. ومنها : التأكيد على قوة الأخطار المحيطة بالإنسان ،والتي لا يمكن مواجهتها إلا بالاستعانة بالله ،وهو صلب المعنى الذي يلفت إليه الحديث ، يفهم ذلك من حال الريشة الخفيفة في مواجهة الرياح ، ومن المعلوم في البيئة أن أقل ريح يمكن أن تذهب بأكبر ريشة كل مذهب ، كما يفهم من جمع الرياح، وإفراد الريشة كثرة الأخطار مع صعوبة الخلاص منها لوجودها في كل مكان، وصدورها من كل اتجاه مع، وحدة القلب، وقلة الناصر مما يعزز الشعور بالافتقار إلى الله .

استخدام أعضاء جسم الإنسان في عملية التربية والتعليم .

استخدم الرسول -ﷺ- أعضاء جسم الإنسان في التعليم والتربية وتمكين عملية الاتصال والفهم كما استخدم جسم الإنسان مشبهًا به للدلالة على شدة الإحساس ، وقوة التواصل التي لا يمكن أن تتفرق إلا بألم مبرح وجهد جهيد، فقد ورد في

---

٥٩ سنن الترمذي / جـ ٤ - ص: ٤٤٨/ كتاب النذور والأيمان / باب : ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن/ حديث: ٢١٤٠ .

٦٠ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني/ جـ : ١٩ص : ٢٦٧./ دار الفكر – بيروت / الطبعة الثانية.

الحديث عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[٦١] .

الوسيلة التي استخدمها الرسول -ﷺ- في هذا الحديث هي ضرب المثل حيث شبَّه حال المؤمنين في توادهم ،وتعاطفهم ،وتراحمهم بأعضاء الجسد الواحد في السهر ،والحمى ووجه الشبه قوة الاتصال ،ورقة الشعور ،وسرعة التفاعل.

وباستخدام الجسد مشبهًا به في هذه الصورة يدرك المتعلمون عدة دلالات منها:أن الجسد كيان واحد رغم تعدد أعضائه واختلاف وظائفه وكذا حال المؤمنين على اختلاف أماكنهم وأوطانهم (فالإيمان قوة واحدة تنتظم قلوب المؤمنين وأظهر المظاهر المرشدة إلى الإيمان بذل المؤمن وده ورحمته وعطفه، تألماً بما يؤلمهم وتداعياً لما يصيبهم، فمن فقد هذا التداعي فلم تعطفه العواطف، ولم تبكه البواكي، فليتحسس قلبه، وليسأل نفسه: أين أنا من دلائل الإيمان؟)[٦٢] واستخدام الرسول -ﷺ- للجسد في التشبيه يشير أول ما يشير إلى معنى الاتحاد المبني على كمال الاتصال .

وأن هذا الكيان المشبه به مكون من أعضاء ويشير في جانب المشبه (حال المؤمنين) إلى أن المؤمنين مهما تفرقت بهم الأماكن وتغيرت بهم الأزمان فأصلهم منبعه واحد، كما أن لكل عضو وظيفة معينة يؤديها في إطار الحركة العامة للجسم وكذا المؤمنين يكمل بعضهم بعضًا، ويؤدي كل منهم عمله في إطار مصلحة الأمة المسلمة محبًالأخيه ما يحب لنفسه.

والجسم يرتبط بجهاز شعوري واحد يستشعر أحوال كل عضو مهما صغر، وكذا

---

(٦١) شرح صحيح مسلم للنووي جـ :١٦ ص : ١١٩/ كتاب البر والصلة / باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم / حديث رقم ٢٥٨٦ /ترقيم. محمد فؤاد عبد الباقي ط. دار إحياء التراث العربي ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

(٦٢) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية / صـ ١٦٠.

كل مؤمن مهما ترامت به أطراف الأرض يسعد بسعادة إخوانه، ويئن بأنينهم، ويسهر أرقاً لما يصيبهم، وفيه إشارة إلى ضرورة التجاوب الحي، والفعال.

وأن كل عضو من أعضاء الجسم لا يستغني عن العضو الآخر، وغياب أي عضو من الجسد يعني تشوهًا وعجزًا فلا غنى للعين عن اليد، ولا غنىً لليد عن القدم، ولا غنىً لعضو عن عضو. وكذا في حال المؤمنين في حاجة بعضهم إلى بعض.. في اللقاء ابتسامة وفي الشدة إعانة وفي ظاهر الغيب دعاءٌ مستجابًا.

والأمر أشد وضوحًا في حال أوطان الأمة الإسلامية التي تفرقت، فكل وطن مهما صغر هو عضو في جسد الأمة لا تستغني عنه بقية الأعضاء وضعف وطن واحد يضعف الأمة وغيابه يوهن الأمة ويفُتُّ في عضدها ويجعلها مطمعًا لأعدائها تحتذها عضوًا إثر عضو.

كما أن في الجسد أجهزة وأعضاءً داخلية وأخرى خارجية تعمل في دقة وانتظام لما فيه مصلحة الجميع، وكذا المؤمنين داخل الأمة الإسلامية وخارجها مختلطين بالأمم الأخرى، ومع هذا فهم يعملون لما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين كما تتجاوب الأمة لندائهم، وتعمل على إغاثتهم.

ثم إن أي وباء يصيب عضوًا يمكن أن ينتشر، فيصيب بقية الأعضاء، فيلزم سرعة مقاومة الوباء لحماية بقية الأعضاء، وكذا الأمر في المجتمعات المسلمة حيث يجب مقاومة كل ما من شأنه أن يضر بالأمة، وسلامتها من بدايته قبل أن ينتشر.

هكذا يستقبل المتعلمون المعنى المنبث خلال التشبيه بأعضاء البدن، وتصل هذه المعاني إلى عقولهم بقدر ما يستوعب كل عقل، وما يدرك كل فهم بحيث إن أقلهم إدراكًا يتقرر في نفسه أنه لا غنى لأخيه المؤمن عنه، ولا غنى له عنه .

<u>استخدام الضلع</u>:استخدم الرسول -ﷺ- ضلع الإنسان في العملية التعليمية ليقرر معنى دقيقًا له خطره في طبيعة علاقة الرجال بالنساء، وهو بيان طبيعة

المرأة التي يجب أن توضع في الاعتبار عند التعامل معها ، والغفلة عن هذا المعنى كفيلة بأن تهدم بنيان الأسرة التي هي نواة المجتمع الأولى. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ (الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ)(٦٣) .

لما كان في طبع النساء عوجًا ونقصًا فطريًا يصعب تغيره كان لابد من التعايش مع هذا النقص، وتفهم طبيعة الفطرة التي خلق الله الناس عليها وقد قرر الرسول -ﷺ-هذا المعنى بطريقة عبقرية اتسمت بالوجازة واليسر والتسرب إلى الأفهام دون عناء.

وتشبيه -ﷺ-للمرأة بالضلع يقرر في أذهان المتعلمين الذين يدركون حقيقة الضلع بشكله وحجمه ومكانه في الجسم عدة دلالات منها : أن العوج في خلق النساء أصل فطرن عليه،ويستحيل إقامة هذا العوج؛ لأن محاولة ذلك في الضلع تؤدي إلى كسره، وكذلك من يحاول أن يقيم المرأة على المنهج الأمثل إقامة كاملة، فإنه لا يستطيع وقد ورد عَنْ أَبِي مُوسَى - ﷺ- قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-:(كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ،وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ،وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)(٦٤).

والمتأمل لحال المشبه به يدرك أن هذا العوج جزء مهم في أصل خلقته لأداء مهمته، فلولا انحناء الضلع لتعرض أهم أعضاء الجسم وهو القلب للخطر، لأنه يحيط به، ومن العوج الذي في المرأة ضعفها ورقتها التي تعرضها للأخطار، وتجعلها أميل إلى حكم العاطفة من العقل،وهذا الضعف، وتلك الرقة هما من

---

٦٣ صحيح البخاري / جـ : ٥ ص: ١٩٨٧ / كتاب النكاح / باب المداراة مع النساء وقول النبي -ﷺ-: (إنما المرأة كالضلع) حديث: ٤٨٨٩.

٦٤ صحيح البخاري / جـ ٣ ص ١٢٥٢/ كتاب التفسير / باب قول الله تعالى { وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون – إلى قوله – وكانت من القانتين } / التحريم ١١ ، ١٢/ حديث : ٣٢٣٠.

مكملات وظيفتها، فالضعف يركن بها إلى الرجل، والرقة تجعلها أصلح لتربية الصغار، والحنو عليهم والصبر على أحوالهم أكثر من الرجال، وهم عدة الأمة لمستقبلها .

وفي هذا التشبيه تصبير للرجال،وتسلية لهم فيما يلاقون من النساء مع التماس العذر لهن؛ لأن هذا العوج إذا كان في أصل الخلقة، فالأمر خارج عن مقدورهن ،لأن مخالفة ما جبل عليه الإنسان من الأمور الصعبة وليس من العدل أن يعاب الإنسان بما أودع الله فيه كمن ولد فاقدًا لحاسة،ولكنهن مأمورات بطلب الكمال، وإن لم يدركنه ، فليُحَصِّلن منه ما استطعن ،وعلى الرجال التماس العذر لهن فيما قصَّرن.،ويفهم من التشبيه قبول المرأة كما هي بخيرها، وشرها، وعدم الإصرار على حصول كمالها؛ لأن ذلك مما تأباه فطرتها وإنما يرضى منها بالحسن، ويصبر على القبيح.

المبحث الرابع
استخدام الأرض والحصى والمعادن والنبات والكواكب .

من مقومات البيئة الطبيعية التي استخدمها الرسول -ﷺ- الأرض والحصى والمعادن والنبات والكواكب وقد استخدمها استخدامًا يدلّ على إدراكه لخصائصها وتوظيفها بما يبرز المعنى المراد لمن يتلقون عنه علمه،ويكشف أبعاد الموضوع كما يضمنه لونًا من التشويق الذي يربط المتعلم بمعلمه حتى تمام العملية التعليمية بحيث لا يدركه كلل ولا ملل.

فمن استخدام الرسول -ﷺ- للأرض بخصائها لكشف المعاني وتوضيحها ما ورد عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- :(إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ)(٦٥) .

المتأمل للحديث يجد في وسيلته البساطة في العرض ، واليسر في الفهم لعلم الجميع بأنواع الأرض مع أن المعنى يغوص في أعماق الجبلة البشرية ليكشف أسباب اختلاف طبائع الناس كما يعلل لهذا الاختلاف، وهي معان عند شرحها تحتاج إلى كلام طويل ، وقد تدركها أفهام بعض المتعلمين دون بعضهم .

لكن استخدام الوسيلة التوضيحية، وهي الأرض عَرَض المعنى في يسر رابطًا أنواع الناس بأنواع الأرض المعلومة للجميع ومن ثَمْ يتهيأ السامع للتعامل مع العقول الصلبة والسهلة والنفوس الطيبة والخبيثة لعلمه بأن هذه الطبيعة التي خلق الله الناس عليها .

---

٦٥) سنن الترمذي / جـ ٥ - ص : ٢٠٤/ كتاب تفسير القرآن/ باب ٣ ومن سورة البقرة / حديث :٢٩٥٥ .

وقد ورد التشبيه بالغيث والأرض في صورة تقرر، وتبيِّن حال الناس في الانتفاع بما جاء به الرسول -ﷺ-من الدين من عدمه فعَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ:(مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)(٦٦).

المتأمل للصورة النبوية في هذا التشبيه التمثيلي يجد أنها من صميم البيئة التي يلابس المخاطب كل دقائقها ،وبالتالي تنعكس على فهمه للمعنى، وثرائه مما يسهم في سرعة فهم المعنى ، وكماله قال النووي:(معنى هذا التمثيل أن الأرض ثلاثة أنواع فكذلك الناس ؛ فالنوع الأول... المنتفع النافع والثاني: النافع غير المنتفع ،والثالث :غير النافع ،وغير المنتفع، فالأول: إشارة إلى العلماء ،والثاني: إلى النَقَلَة، والثالث: إلى من لا علم له ،ولا عقل)(٦٧).

وبتحليل النص النبوي نستطيع أن نقف على كثير من الوسائل التعليمية النبوية من استخدام للمثل بما له من قبول في النفوس وسرعة فهم في العقول إضافة إلى استخدام الأرض في ضرب المثل لتمام علم المخاطبين لها . ومن براعة النبي -ﷺ- في اختيار الألفاظ أنه عبَّر بلفظ (الغيث) لأن عادة العربي أن يسمي المطر في الخير بالغيث وفي غيره بالمطر، فالغيث يستعمل في الخير، وفيه إشارة إلى أن كل ما جاء به الرسول -ﷺ- خير ،وذكر الإمام العيني وجهاً آخر

---

٦٦)صحيح البخاري / جـ : ١ / ص : ٤٢ / كتاب العلم / باب فضل من علم وعلم / حديث ٧٩.

٦٧) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج / للنووي /جـ ١٥ ص : ٤٦ / دار إحياء التراث العربي – بيروت / الطبعة الثانية ، ١٣٩٢

قال : (فإن قلت لم اختير الغيث من بين سائر أسماء المطر قلت ليؤذن باضطرار الخلق إليه حينئذ قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيّ الْحَمِيدُ)(سورة: الشورى – الآية: ٢٨) وقد كان الناس قبل المبعث قد امتحنوا بموت القلوب ،ونضوب العلم حتى أصابهم الله برحمة من عنده ، وفي الحديث تشبيه ما جاء به النبي –ﷺ– من الدين بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه وتشبيه السامعين له بالأرض المختلفة فالأول تشبيه المعقول بالمحسوس ،والثاني تشبيه المحسوس بالمحسوس ،وعلى قول من يقول بتثليث القسمة يكون ثلاث تشبيهات على ما لا يخفى، ويحتمل أن يكون تشبيها واحدا من باب التمثيل أي تشبيه صفة العلم الواصل إلى أنواع الناس من جهة اعتبار النفع، وعدمه بصفة المطر المصيب إلى أنواع الأرض من تلك الجهة قوله فذلك مثل من فقه تشبيه آخر ذكر كالنتيجة للأول، ولبيان المقصود منه...وأما وجه الشبه فهو الجهة الجامعة بين العلم والغيث فإن الغيث يحيي البلد الميت، والعلم يحيي القلب الميت)([٦٨]).

وفي التشبيه بالغيث إشارة إلى عموم الرسالة، لأن المعهود عن الغيث في البيئة أنه يسقي الجميع ولا يسقي شخصا ويترك شخصا بل يعم ، ووصف الغيث بالكثير فيه إشارة إلى امتداد العطاء عبر الأجيال لما هو معلوم من أن الماء الكثير يبقى أكثر لاسيما إذا وجدت الأرض التي تحفظه كما تشير بقية الحديث ، وتعبير الرسول –ﷺ– بقوله (أصاب) إشارة إلى تحقق التبليغ ،لأن الإصابة ضد الخطأ، يقال: أَصاب فلانٌ في قوله وفِعْلِه وأَصابَ السهمُ القِرْطاسَ إِذا لم يُخْطِئْ ([٦٩])مما يعني تحقق الوصول بالرسالة للمرسل إليهم .

---

٦٨ ينظر عمدة القاري / جـ : ٢ ص : ١١٩.

٦٩لسان العرب / المؤلف محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري المصري / جـ : ١/ ص: ٢٠٤/ دار صادر – بيروت –الطبعة الأولى .

كما أن تقسيم الرسول -ﷺ- لأنواع الأرض في استقبالها للغيث يستوعبها في البيئة إذ أن الأرض إما أن تكون صلبة تمسك الماء ،وإما أن تكون خصبة تنبت، وإما أن تكون قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلاء وهو من حسن التقسيم.

وقد شخَّص الرسول -ﷺ- من خلال البيئة الطبيعية أصناف الناس في استقبالهم لما جاء به من الوحي بأصناف الأرض الثلاثة، وقابلها بنوعين من الناس نوع علم، وتعلم، ونوع أَبىَ، وتكبَّر، وسكت عن النوع الناقل، وإذا نظرنا إلى مقابله في البيئة من أنواع الأرض نجد أنها لا تذكر لأنها تكون مغطاة بالمياه ونفعها قاصر على إمساك الماء.

ومن استخدام الحصى كوسيلة تعليمية تسهم في تكوين البنية التعبيرية التي تترافق معها في العملية التعليمية ما جاء عن ابْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-:(هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذِهِ وَمَا هَذِهِ وَرَمَى بِحَصَاتَيْنِ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ هَذَاكَ الْأَمَلُ وَهَذَاكَ الْأَجَلُ)([٧٠]) .

أراد الرسول -ﷺ- أن يقرر بصورة جلية المفارقة بين قرب أجل الإنسان، وبعد أمله حتى لا يشغله طول الأمل عن دنو الأجل؛ فيخسر آخرته ، فاستخدم لذلك حصاتين ألقاهما بطريقة معينة تركت مسافة من المكان صوّر خلالها مساحة الزمان،فهو تصوير للبعد الزماني بالبعد المكاني بين أجل الإنسان، وأمله عن طريق التشبيه ،فخرج بالمعنى من حيز المعاني المجردة المتخيلة إلى حيز المحسوس المدرك بالبصر،مما ساعد في تقرير المعنى، وتوضيحه لإدراكه بحاسة البصر بعد أن لفت أسماعهم إليه ،ولا شك أن ما تقرر بحاستين أوكد مما تقرر بحاسة واحدة مع تحقيق الثبات للمعنى في أذهان جمهور المتعلمين لارتباطه بأشياء مقارنة له في أذهانهم تجعله أثبت مع الزمن .

---

٧٠ سنن الترمذي / جـ : ٥ / ص ١٥٢/ كتاب الأمثال /باب ما جاء في مثل ابن آدم وأجله وأمله /٢٨٧٠

استخدام النبات .

عرف الرسول -ﷺ- في بيئته النباتات ،والأشجار التي تنمو في الجزيرة العربية كالنخلة، والسدر والأرز ،والحنظل ،والأراك ،والسعدان، وغيرها كما عرف خصائصها، ووظفها كوسائل توضيحية في العملية التعليمية لتمام علم جمهور المتعلمين بها، وتلك فرصة مميزة عند المعلم الخبير، وقد وردت أنواع من النبات في تشبيهاته في دقة متناهية أبرزت المعني المراد، وبلغت جميع الأفهام حتى عجب القوم، ودهشوا من دقته، وطرافته عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ:(تَخْرُجُ ضِبَارَةٌ(٧١) مِنَ النَّارِ قَدْ كَانُوا فَحْمًا قَالَ، فَيُقَالُ بُثُّوهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَرُشُّوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَاءِ قَالَ : فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ كَأَنَّكَ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ)(٧٢)

قال العلامة المناوي :(والمراد التشبيه في سرعة النبات، وطراوته، وحسن لونه وضعف النبات، فهو كناية عن سرعة نباتهم، وحسن ألوانهم، وضعف حالهم، ثم يشتد قواهم بعد، ويصيرون إلى منازلهم شبه سرعة عود إنباتهم بسرعة نباتها)(٧٣).

استخدام النخلة .

استخدم الرسول -ﷺ- النخلة كوسيلة تعليمية تقرب المعاني عن طريق التشبيه بها، ويقرر بعض الدروس مستخدمًا لخصائصها في بيان صفات المؤمن مع التشويق للمعنى ،وإثارة انتباه المتعلمين لما يتم درسه، ويبلِّغ ما أراد، فقد جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ-رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا،

---

٧١ الضِبارة هي الجماعات المتفرقة ينظر (النهاية في غريب الحديث والأثر) أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري/ جـ: ٣/ ص: ١٥٣/ تحقيق : طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي/ الناشر : المكتبة العلمية – بيروت ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٧٢ مسند أحمد / جـ : ٣ / ص : ٩٠ / باقي مسند المكثرين / حديث (١١٨٧٥) .

٧٣ فيض القدير شرح الجامع الصغير المناوي / جـ: ٢/ ١٦٩.

وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ حَدِّثُونِي مَا هِيَ ؟ قَالَ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: (هِيَ النَّخْلَةُ) (٧٤).

ضم الحديث مجموعة من الوسائل العبقرية في التعليم والتربية منها : التشويق ، والحوار ، والتحفيز ، وضرب المثل .وفيه ملمح بديع من أدب المتعلم حيث علم ابن عمر- ﷺ- الإجابة، ولكنه استحيا من الجواب لوجود من هو أكبر منه في المجلس ، وهي صورة من أدب المتعلم في الجيل الأعظم .

فقد عرض الرسول -ﷺ-المعنى بطريقة طريفة مشوقة فيها حث على المنافسة، وتحفيز للعقل، وتستفذ القوى الذهنية للوصول إلى الجواب ، وهو ما أطلق عليه في علم التربية حديثًا العصف الذهني .

والدروس التي يقررها الحديث النبوي بتشبيه المؤمن بالنخلة كثيرة تبدو خلال المقارنة بين المشبه به، والمشبه ، وهما المؤمن ،والنخلة ،ومن أوجه التشابه بينهماالنفع الدائم، وعلى كل حال ؛لأن المشبه(النخلة) في بيئتها كلها منافع لا يسقط منها شيء بغير فائدة(قال العلماء شبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس، وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة ،ومن خشبها ،وورقها ،وأغصانها، فيستعمل جذوعًا ،وحطبًا وعصيًا ،ومخاصر ،وحصرًا ،وحبالًا ،وأواني ،وغير ذلك ،ثم آخر شيء منها نواها ،وينتفع به علفًا للإبل ،ثم جمال نباتها ،وحسن هيئة ثمرها ،فهي منافع كلها وخير ،وجمال كما أن المؤمن خير كله من كثرة طاعاته ،ومكارم أخلاقه)(٧٥).

٧٤صحيح البخاري جـ: ١ – ص: ٣٤ / كتاب : فضل العلم / باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا وأنبأنا / حديث :٦٠.

٧٥ شرح النووي على صحيح مسلم جـ :١٧ ص: ١٥٤.

ويفهم من حال النخلة في البيئة من طيب ثمرتها، وحلاوتها ،وعموم المنفعة بها طيب كلام المؤمن ،وعمله، ورفقه بإخوانه ،ونفعهم متى وجد إلى ذلك سبيلًا .

ومن المعلوم في الواقع، ومن نص الحديث عدم سقوط ورق النخلة مما يعني دوام لباسها، وزينتها فلا يسقط عنها صيفًا ،ولا شتاءً، كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى ،وزينتها ،و لا تسقط له دعوة عن عبد الله بن عمر -ﷺ-قال كنا عند رسول الله -ﷺ- ذات يوم فقال : (إن مثل المؤمن كمثل شجرة لا يسقط لها أنملة أتدرون ما هي؟ قالوا لا. قال : هي النخلة. لا تسقط لها أنملة، ولا يسقط لمؤمن دعوة)(٧٦) .

كما أن النخلة ثمرها سهل التناول أما قصيرها ،فلا يحوج المتناول أن يرقاها، وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال، فتراها كأنها قد هُيئت منها المراقي، والدرج إلى أعلاها ،وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر، ولا باللئيم .

وفي تشبيه النخلة بالمسلم إشارة إلى الشموخ، والرفعة مع كرم الأصل يفهم ذلك من حال النخلة في امتداد فرعها في السماء ،وثبات أصلها في الأرض روى عن أبي إياس معاوية بن قرة: قال : سمعت أنس بن مالك سئل عن هذه الآية ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ...) قال هي النخلة...)(٧٧)

ويفهم من هذا التشبيه أيضاً رد السيئة بالحسنة، وهو من خلق المؤمن لقوله تعالى:(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)(سورة: المؤمنون -

---

٧٦ بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث/ المؤلف : الحارث بن أبي أسامة / الحافظ نور الدين الهيثمي / جـ ٢ / ص: ٩٦٥ / ت : د. حسين أحمد صالح الباكري/ الناشر : مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة /الطبعة الأولى ، ١٤١٣ - ١٩٩٢.

٧٧ مسند ابن الجعد/ المؤلف : علي بن الجعد بن عبيد أبو الحسن الجوهري البغدادي / جـ: ١ - ص: ١٧٠ تحقيق : عامر أحمد حيدر/ الناشر : مؤسسة نادر - بيروت/ الطبعة الأولى ، ١٤١٠ - ١٩٩٠.

الآية: ٩٦) و قوله تعالى: (وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)(سورة: فصلت – الآية: ٣٤).

ويفهم هذا المعنى من حال النخلة في بيئتها حيث ترمى بالحجر ، فتقذف الثمر ،كما يفهم من التشبيه ضمنًا الاستقامة على الفطرة ؛لأن حال النخلة في بيئتها ارتفاع ساقها إلى أعلى في استقامة، وسمو، وحال المؤمن في استقامته على فطرة الله وعبادته باتباع ما أمر، واجتناب ما نهى .

ولقائل أن يقول أن في بعض النخل في واقع البيئة اعوجاجًا ، وميلًا، أقول ،وفي هذا أيضًايشبه المؤمن،لأن في بعض المؤمنين نقصًا،ولكن هذا النقص لا يخرج به عن أصل الإيمان، كالبخل والجبن في بعض المؤمنين مصداق ذلك ما ورد عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ –ﷺ–: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا ؟ فَقَالَ: نَعَمْ ! فَقِيلَ لَه:أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ نَعَمْ ! فَقِيلَ لَهُ :أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ:لَا)(٧٨). وفي التشبيه بالنخلة إشارة إلى قوة التحمل لظروف الحياة المختلفة، فالمعروف في البيئة أن النخلة تتحمل العطش كما أنها تتحمل زيادة الماء فتعيش على ضفاف الأنهار وكذلك المؤمن يتحمل شظف العيش صابرًا ، أو يعيش في نعمة الله غنيا شاكرًا .

كما أن النخلة تتحمل الرياح ،والعواصف ، فتميل، ولا تنكسر في حين أن بعض الشجر ينكسر، ولا يميل كشجر الأرز الذي شبَّه به الرسولُ –ﷺ– الكافر فيما رواه أَبو هُرَيْرَةَ–رضي الله عنه–قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ–:(مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ وَالْفَاجِرُ كَالْأَرْزَةِ صَمَّاءَ

٧٨ موطأ الإمام مالك / جـ : ٢ / ص : ٩٩٠ / كتاب الكلام / باب ما جاء في الصدق والكذب / حديث : ١٥٧١ / ت : محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي – مصر .

مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ)(٧٩).كذلك المؤمن الذي يتقلب راضياً في قدر الله بين العسر واليسر في البلاء والعافية .

وللنخلة في البيئة من الشوك ما يحمي ثمارها التي فيها مادة حياتها من كل دابة يدفعها فراغ رأسها من العقل إلى القضاء عليها قبل تمامها ،كذلك المؤمن يجب أن يكون له من القوة والبأس ما يحمي به نفسه من عدوه قال تعالى: (وَأَعِدّواْ لَهُمْ مّا اسْتَطَعْتُمْ مّن قُوّةٍ وَمِن رّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوّ اللّهِ وَعَدُوّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ)(سورة: الأنفال – الآية: ٦٠).

وروى أَبو هُرَيْرَةَ –ﷺ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ–(الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ،وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ،وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)(٨٠).وعن أبي هريرة أن رسول الله –ﷺ– قال :(مثل المؤمن القوي كمثل النخلة ومثل المؤمن الضعيف كمثل الخامة(٨١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن المؤمن : حر مجرد دائر مع الأمر حيث دار يدين بدين الآمر أني توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله،

٧٩صحيح البخاري / جـ : ٥ ص : ٢١٣٨/ كتاب المرضى /باب ما جاء في كفارة المرضى / حديث : ٥٢١٢.

٨٠ صحيح مسلم / جـ : ٤ / ص :٢٠٥٢ / كتاب القدر / باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله / حديث : ٢٦٦٤.

٨١ مسند الشهاب / المؤلف : محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي / جـ ٢ / ص ٢٧٩/ ت : حمدي بن عبد المجيد السلفي
الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت / الطبعة الثانية ، ١٤٠٧ – ١٩٨٦.

والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله قد صحب الله بلا خلق وصحب الناس بلا نفس...)([٨٢]).

والنخلة كلما طال عمرها ازدادت شموخًا وعلوًا يزيدها منعة، ويكثر ثمرها ويزيده طيبًا وهذا في جانب المشبه به (المؤمن) كلما ازداد عمره ازداد خيره، وكثرت طاعاته، وازداد قربًا من الله وبعدا عن المعاصي وتغلبًا على شيطانه ونفسه الأمارة بالسوء.

وإذا نظرنا إلى النخل في بيئة العربي نجد أنه يجعل منه سورًا يحمي بستانه من كل عادٍ عليه بزراعته حوله قال تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً)(سورة الكهف الآية (٣٢) وكذلك المؤمن مصدر أمن وحصن لإخوانه في وقت الشدة والخوف بقدر قوة إيمانه؛ ولذلك كان الصحابة إذا حمي الوطيس تحصنوا برسول الله -ﷺ- روى الحاكم في المستدرك : عن علي -ﷺ- قال : كنا إذا حمي البأس ولقي القوم القومَ اتقينا برسول الله -ﷺ- فلا يكون أحد منا أدنى إلى القوم منه)([٨٣]). وعندما دارت الدائرة على المسلمين في غزوة أحد صمد قلة من الصحابة مع الرسول -ﷺ- في وجه المشركين حتى عاد بقية الصحابة خلفهم إلى القتال .

وقلب النخلة (الجمَّار) من أطيب القلوب وأحلاها وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب .

كما أن نفعها لا يتعطل بالكلية أبداً(بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع أخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع

---

٨٢ مدارج السالكين لابن القيم /جـ : ١ /ص : ٩٠/ ت : محمد حامد الفقي / دار الكتاب العربي – بيروت /الطبعة الثانية/١٣٩٣هـ١٩٧٣م.

٨٣المستدرك على الصحيحين /المؤلف : محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري / جـ ٢ ص : ١٥٥/ ت : مصطفى عبد القادر عطا / دار الكتب العلمية – بيروت/الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠.

وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب، فلا يزال خيره مأمولًا وشره مأمونًا.روى أَبو هُرَيْرَةَ -ﷺ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- وَقَفَ عَلَى أُنَاسٍ جُلُوسٍ فَقَالَ:(أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُمْ مِنْ شَرِّكُمْ قَالَ فَسَكَتُوا فَقَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَقَالَ رَجُلٌ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنَا بِخَيْرِنَا مِنْ شَرِّنَا قَالَ خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ قَالَ)([٨٤])([٨٥]) .

هكذا تجد البراعة النبوية في استغلال مقومات البيئة المحيطة به في العملية التعليمية ليقرر كثيرًا من المعاني في وجازة ويسر ويصل إلى مختلف الأفهام يعطيها بقدر ما تسمح به سجيتها بعد إدراكها لما يجب معرفته،وتلك عبقرية المعلم الأعظم.

استخدام الغصن

استخدم رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-الغصن في درس تعليمي تربوي لبعض من يعدهم لريادة العملية التعليمية من بعده فقد كان -ﷺ-يقوم بمهمة المعلم إذا كان يعلم شخصًا،أو مجموعةً من حديثي الإسلام أمور دينهم، وكان يقوم بدور المربي للمعلمين الذين يعلمون الأمة من الصحابة – رضوان الله عليهم – كما جاء في حديث عَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا عُثْمَانَ أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا قُلْتُ وَلِمَ تَفْعَلُهُ ؟ فَقَالَ : هَكَذَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- وَأَنَا مَعَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ فَقَالَ :(يَا سَلْمَانُ أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا ؟ فَقُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ ؟ قَالَ : (إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ

---

٨٤ سنن الترمذي /جـ ٤ ص : ٤٥٩ / كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ/ باب :٧٦/ حديث : ٢٢٦٣ .

٨٥ ينظر مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم / جـ : ١/ ص : ٢٣٠ / الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت

الْخَمْسَ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ وَقَالَ: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) (٨٦)

أراد الرسول -ﷺ- أن يعلم صاحبه معنى تنقية الوضوء والصلاة لخطايا العبد بطريقة عملية تشترك في إدراكها أكثر من حاسة ، فلم يلجأ إلى المعنى الذهني المجرد، وإنما استعان بمعطيات البيئة لتصوير المعنى المراد فأخذ غصنًا يابسًا وهزه حتى تحات ورقه فقال يا سلمان ألا تسألني لم أفعل هذا ؟...) ومن الملاحظ في الحديث تعدد الوسائل التعليمية،فقد اختار عنصرًا من البيئة المدركة بأكثر من حاسة لتقرير المعنى، واستخدم أسلوب الجذب بالفعل الممهد للمعنى، وأسلوب التحضيض ، والإثارة بالسؤال ، ، ثم إنه اختار غصنًا يابسًا ؛لأنه المناسب لأداء المعنى المراد الذي يهيئ له؛لأن الورق اليابس يسهل سقوطه،وهو أشبه ما يكون بخطايا العبد المصلي التي انطفأت نار الشهوة في قلبه ببرد الإيمان الذي حل بذكر ربه في صلاته راكعًاساجداً بين يدي الله يحاسب نفسه؛ فيندم، ويتوب .

وفي التشبيه بالغصن الذي ييبس ورقه إشارة إلى طبيعة تعلق المؤمن بالمعصية،وأنها ليست متمكنة في نفسه،بل هي أمر عارض في لحظة ضعف لا يلبث أن يتعافى،ويفارقها يفهم هذا من حال الغصن الذي لا يتصل اتصالًا وثيقًا إلا بما فيه نفع من خضر الأوراق أما ما ييبس بسبب الآفة، أو العطش ، فلا يبقى متصلًا به،وإنما يستبدله بغيره بعد قوته ما دام الأصل سليمًا.

كما أنه هز الغصن حتى تساقط ورقه ،لأن هذا التجريد للغصن هو الموازي للمعنى الذي يرصد له، وهو تجرُّدُ العبد الذي أسبغ الوضوء، ثم أدى الصلوات الخمس، وهذه الهزة التي تساقطت على إثرها أوراق الغصن تشبه انتفاضة

---

٨٦) مسند أحمد / جـ : ٥ / ص: ٤٣٦/ كتاب باقي مسند الأنصار / باب : حديث رفاعة بن شداد عن عمرو بن الحمق ﷺ / حديث ٢٢٥٩٤.

الخشوع حين يقف العبد طاهرًا بين يدي الله يراجع نفسه فيما قدمت قال تعالى:(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...)(سورة : الحج الآية : ٣٥)

وبعد أن أنهى الرسول -ﷺ- التحضير للمعنى توجَّه بالنداء إلى تلميذه معلم الغد (يا سلمان !) وصدور النداء بعد أن أخذ الغصن، وجرَّده من ورقه - تشويق لما بعده وربط له بما قبله حتى يستصحب المشهد معه مع ما فيه من استنفار لحواسه لتتوجه بكليتها إليه مع ما في ندائه باسمه من هدهدة لخاطره وتلطف في استجماع مشاعره، ثم التحضيض بالاستفهام تصعيدًا للتشويق بالنداء، وتصويبًا لعقل المتعلم نحو الوسائل المقررة للمعنى .

استخدام الشوك

استخدم الرسول -ﷺ- الشوك للدلالة على معنى دقيق يصور عذاب العصاة لحظة السقوط من فوق الصراط إلى غياهب الجحيم ، ولما كان يعلِّم الناس جميعًا على تفاوت أفهامهم واختلاف طباعهم مع شدة حرصه على التبليغ اختار وسيلة مدركة بأكثر من حاسة تدركها العيون كما يدركها اللمس، ويعرف المتعلمون أثرها خلال بيئتهم، فقدروى أبو هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -ﷺ- قال :(...فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا نَعَمْ قَالَ فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ .....][٨٧]

وبتأمل الوسيلة التي استخدمها الرسول -ﷺ-في العمليةالتعليمية داخل الصورة نجد أن المشبه به (شوك السعدان) من عمق البيئة قال الزين بن المنير :(تشبيه الكلاليب بشوك السعدان خاص بسرعة اختطافها وكثرة الانتشاب فيها مع التحرز

(٨٧)صحيح البخاري /جـ ١ - ص ٢٧٧ / كتاب صفة الصلاة / باب : فضل السجود / حديث : ٧٧٢ .

والتصون تمثيلًا لهم بما عرفوه في الدنيا وألفوه بالمباشرة ،ثم استثنى إشارة إلى أن التشبيه لم يقع في مقدارها (٨٨).

وقوله (هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟)استفهام تقريري لاستحضار الصورة المذكورة للتأكد من رسوخها في أذهان المخاطبين تمهيداً لتقرير المعنى المراد بإلحاق صورة كلاليب جهنم بها لتقريب الصورة ثم تقرير درجة التفاوت بين ما هو دنيوي وأخروي بقوله:(غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ)وهو تكميل بلاغي يعطي الصورة مدى غير محدود يتملاه الوجدان وأفقًا رحبًا يذهب فيه العقل كل مذهب وقوله :(تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ) يعطي الصورة بعدًا آخر؛ لأنه يصوِّر هذا الهول الخارج من النار كالوحش بصورة المميز الذي يختار،وينتقي من أصحاب الذنوب من أمر بأخذه .

استخدام الكواكب والنجوم :

استخدم الرسول -ﷺ- الكواكب والنجوم في عملية توصيل المعاني لتمام علم الناس بها لاسيما العربي الذي تمثل له مصدر النور الأوحد ودليله الهادي في السرى ، وقد أحسن الرسول -ﷺ- وأبدع في توظيف هذه المعطيات البيئية في العملية التعليمية لتقريب المعاني، وتوضيح المبهمات فنرى الحديث التالي قد ألحق فيه الغيبي المجهول بالمشاهد المعروف عن طريق التمثيل بمظاهر البيئة تقريبًا للمعنى من الأذهان ليثبت، ويتقرر مع حوار يجلي أبعاد المعاني، ويقررها حتى تكون حافزًا للعمل، والاجتهاد فقد ورد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ :(إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ

٨٨ فتح الباري / جـ: ١١/ ص : ٣٥٤.

اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ قَالَ بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ)[٨٩]

وتشبيه الرسول -ﷺ- هيئة ترآي أهل الغرف لأهل الجنة بترآي الناس الكوكب الدُّري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب في الدنيا تشبيه من صميم البيئة التي يستوي في إدراكها الصغير ،والكبير المتعلم، والأمي ، وفيه الإشارة إلى الرفعة وعلو المكانة بعلو المكان لما هو معروف من ارتفاع الكواكب وبعدها.

وهذاالتشبيه يقذف في النفوس إحساساً بعظمة الجزاء ،وحفاوة الله بهم مما يشوق النفوس إلى السعي لتحصيل الأسباب الموصلة إلى هذه المنزلة.

ووصف الكوكب بالدُّري تكميل بلاغي إشارة إلى الضياء والإشراق والتلألؤ. والدُّري هو العظيم، وسمي دريًا لبياضه كالدر ، وقيل لإضاءته، وقيل لشبهه بالدر في كونه أرفع من سائر النجوم كالدر أرفع الجواهر .

ووصفه بالغابر أي الذاهب الماضي الذي تدلى للغروب، وبَعُد عن العيون إيغال بلاغي يؤكد علو المكانة من جهة، ويقرر عظمة الجزاء الذي لا يمكن لأحد الناظرين يومئذ بلوغه، وهو تشويق وترغيب للمخاطبين في الدنيا للجد والاجتهاد([٩٠]). وقال الطيبي: فإن قلت ما فائدة تقييد الكوكب بالدري ثم بالغابر في الأفق قلت للإيذان بأنه من باب التمثيل الذي وجهه منتزع من عدة أمور متوهمة في المشبه شبَّه رؤية الرائي في الجنة صاحب الغرفة برؤية الرائي الكوكب المستضيء الباقي في جانب الشرق، أو الغرب في الاستضاءة مع البعد .

---

(٨٩)صحيح مسلم /جـ: ٤ ص: ٢١٧٦/ كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها/ باب: ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب حديث (٢٨٣١).

٩٠ ينظر شرح السيوطي على مسلم / جـ : ٦ - ص : ١٧٩.

فإن قلت ما فائدة ذكر الشرق،والغرب وهلا قيل في السماء أي في كبدها قلت لو قيل في السماء لكان القصد الأول بيان الرفعة ويلزم منه البعد وفي ذكر المشرق أو المغرب القصد الأول البعد ويلزم منه الرفعة (٩١).

وتلك من أهم فوائد التشبيه تشخيص المعنى والتشخيص [٩٢] وظيفته التأثير في نفس المتلقي وإثارة انفعاله المناسب عن طريق تشخيص المعاني المجردة في صورة حسية كما مر في حديث ذبح الموت وتشخيصه في صورة كبش وكما سيأتي.

وإنما يصار إلى ذلك من أجل المبالغة في توكيد الصفات، وإثباتها للمعاني التي يراد عرضها من خلال الصورة ،وقد ربط ابن جنى التشخيص بالتوكيد، والمبالغة في حديثه عن الصورة في قوله تعالى ﴿ وأدخلناهم في رحمتنا ﴾(سورة الانبياء الآية ٧٥) قال : وهذا تعالٍ بالغرض ، وتفخيم منه ، إذ صير إلى حيز ما يشاهد ويلمس ويعاين ؛ ألا ترى إلى قول بعضهم في الترغيب في الجميل : ولو رأيتم المعروف رجلا لرأيتموه حسنًا جميلًا وإنما يرغب فيه بأن ينبه عليه ويعظم قدره ، بأن يصوره في النفوس على أشرف أحواله ، وأنوه صفاته وذلك بأن يتخيل شخصًا متجسمًا لا عرضًا متوهمًا)(٩٣).

من عبقرية الرسول -ﷺ- في التعليم تعدد المشبه به لصرف العقول عن التفكير في كنه المشبه

ولأهمية هذا التشبيه، ودوره في تقرير المعاني الغيبية، وترسيخها كان كثيرًا ما يلجأ إليه الرسول -ﷺ- لتقريب المعاني بصورة أبلغ أثرًا في النفوس قد تتعد فيها صورة المشبه به للتأكيد والتقرير من جهة ومن جهة أخرى ليصرف العقول عن

---

٩١ عمدة القاري / جـ : ١٥ ص : ٢١٧.

(٩٢)التشخيص قال الزمخشري :(ومن المجاز شخص الشيء إذ عينه ، أساس البلاغة ط ١ صـ ٤٨٢ مادة (شخص)

(٩٣) الخصائص لابن جنى(أبي الفتح عثمان بن جنى) /جـ ٢ صـ ٤٤٣ : ٤٤٤- ت محمد على النجار – ط المكتبة العلمية – بدون.

التفكير في المشبه إذا كان مما يستحيل عليها إدراك كنهه، فينقلها في عبقرية الأداء من مشبه به إلى مشبه به دون توقف بينهما على تخيل المشبه ، كما فعل ذلك أيضا بالاستفهام الذي سبق كل صورة منهما ليجتاز بالمخاطبين نقطة لا يجب أن تعمل فيها عقولهم ،لأنها فوق ما خلقت له كما جاء في حديث الرؤية عن أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ ...)(٩٤)

والمتأمل لتشبيه الرسول -ﷺ- لرؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة برؤية القمر ليس دونه سحاب ورؤية الشمس ليس دونها سحاب يلاحظ خلاله كثيراً من الدلالات منها :تقرير وضوح الرؤية، وتأكيد وقوع الرؤية على وجه ينفي عنها أي شك من مستبعد أو مستغرب ، والتشبيه بالقمر يفيد مع وضوح الرؤية الأنس بالمرئي وفي جانب المشبه يفيد أنس المؤمنين بالله -ﷻ- وهم في أحوج ما يكونون لذلك بعد تخبطهم في عرصات القيامة، وتقييد القمر بالظرف وما أضيف إليه في قوله :(ليلة البدر)تتميم بلاغي فيه إشارة إلى الجمال والكمال والضياء ،لأن القمر يكون في أحسن حالات الضياء والحسن ليلة البدر. وجملة الحال في قوله :(ليس دونه سحاب) إيغال بلاغي؛ لأنه أتم المعنى عند قوله ليلة البدر، ثم زاد عليه ما يؤكده، وينفي عن الرؤية كل ما يؤثر عليها.

قال ابن حجر : (وفي عطف الشمس على القمر مع أن تحصيل الرؤية بذكره كاف ؛لأن القمر لا يدرك وصفه الأعمى حسا بل تقليدًا والشمس يدركها الأعمى حسًا بوجود حرها إذا قابلها وقت الظهيرة مثلًا ؛ فحسن التأكيد بها قال والتمثيل

(٩٤) صحيح البخاري /جـ: ٥ ص: ٢٤٠٣/ كتاب الرقاق /باب الصراط جسر جهنم / حديث:٦٢٠٤.

واقع في تحقيق الرؤية لا في الكيفية؛ لأن الشمس والقمر متحيزان والحق سبحانه منزه عن ذلك ...)[٩٥].

هكذا نجد العبقرية النبوية في تقرير المعاني ذات الحساسية الخاصة التي لها خطرها في مزالق الأفهام وتضارب الأوهام، وقد استخدم معطيات البيئة في تقرير المعاني البعيدة، ونقل الصور الغيبية بكل دقة في الوجدان لتتحول من معان مجردة إلى أمور ملموسة لكل متعلم ،فيتجاوب مع المعلم، ويتخذ موقفًا وجدانيًا مماثلًا، أو مقاربًا لما في نفسه المعلم، وذلك ما جعل الأمور الغيبية تنطبع في نفوس الصحابة كأنهم يرونها حتى قال قائلهم للرسول – ﷺ–: نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ)[٩٦] وكذلك أثرها على قلوبهم كما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : مَا لَنَا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا وَزَهِدْنَا فِي الدُّنْيَا وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ ...؟)[٩٧].

(٩٥)فتح الباري – ابن حجر / جـ ١١/ ص : ٤٤٧.
(٩٦) سنن الترمذي / جـ : ٤ ص: ٦٦٦ /كتاب : (صفة القيامة) باب (٥٩) حديث (٢٥١٤).
(٩٧)سنن الترمذي / جـ: ٤ ص :٦٧٢ / كتاب : (صفة الجنة) باب (٢) حديث (٢٥٢٦).

المبحث الخامس
استثمار المواقف الطارئة من الوسائل النبوية في التربية ، والتعليم.

من الوسائل النبوية المؤثرة في التربية والتعليم استثمار المواقف الطارئة للتوجيه والإرشاد والتعليم ، والرسول – ﷺ– لا يسكت عن خطأ، ولا يترك خيرًا ينفع الناس في الدنيا والآخرة إلا دلَّهم عليهم، وبادرهم به .

وقد حفلت كتب السنة بهذه المواقف التي ضرب بها أروع الأمثلة في التربية والتعليم ، وقدّم نماذج عالية من أساليب التقويم والتهذيب، وسياسة النفوس بما يحقق لها الفضيلة، ويرتقى بها في رتب الإنسانية ودَرَج الهداية والخلق القويم .

من ذلك ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ؛ فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ فَقَالَ:

(أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ ؟ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيه) (٩٨).

الموقف التعليمي الوارد في هذا الحديث شديد الخطورة لما ينتج عنه من خلل في العقائد وتنازع وقطيعة بين المؤمنين ، وهي أمور لا يسكت عنها رسول الله – ﷺ– ، وقد جاء رد فعله على الموقف متساوقًا مع حجم الموقف فغضب غضبًا شديداً بدا على وجهه، وانعكس على حال المتنازعين .

والغَضَبُ كسلوك إنساني في المخلوقين شيءٌ يُداخِل قُلُوبَهم، ومنه محمود، ومذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق، وأما غَضَبُ اللّه فهو إنكاره على من عصاه فيعاقبه (٩٩).

وكثيرًا ما يأتي الغضب كناية عن الرفض، أو الكراهية، أو التحذير من خطر، أو غيرها من المعاني التي تثيرها دلالة الغضب:قال المبارك فوري : (كأنما فقئ في وجنتيه الرمان) فهو كناية عن مزيد حمرة وجهه المنبئة عن مزيد غضبه وإنما غضب ؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى وطلب سره منهي (١٠٠).وهذا الغضب الموصوف في جملتي الراوي كناية عن رفضه، وكرهه لهذا الأمر وتنبيه على خطره.

ومن الوسائل التعليمية المستخدمة في الحديث الحركات التعبيرية ، والاستفهام ، والقصة بذكر خبر السابقين في مثل القضية سبب الحوار .

والحركات التعبيرية التي اعترت الرسول– ﷺ– بعد رؤيته للمتنازعين في القدر كانت شديدة التأثير،وقدانعكست على جمهور الحاضرين، وأثّرت في السياق

---

(٩٨) – الجامع الصحيح سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي / جـ ٤ / ص : ٤٤٣ /كتاب :القدر / باب : ما جاء في التشديد في الخوض في القدر/ حديث :٢١٣٣ .

(٩٩) ينظر لسان العرب لابن منظور/ جـ : ١ / ص : ٦٤٨.

(١٠٠) ينظر تحفة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي للمبارك فوري ج ٦ ص ٦٨٠

البلاغي من عدة أوجه :منهاأن هيئة الرسول- ﷺ- غضباناً محمر الوجه جذبت انتباه المخاطبين، وهو أول ما يحرص عليه المعلم والمربي ، كما أن هيئة الغضب نبهت المخاطبين إلي أن هناك خطأ فيما يتعاطون حتى يفتش كل منهم في نفسه، ويتدبر حاله، وفي هذا تمهيد جيد لمعرفة أصل الخلاف بينهم وإعداد لتقبل المعنى الفاصل فيه .

وقد صعَّدت تلك الحركات التعبيرية الإحساس بالخطر ؛ لأن الرسول - ﷺ - أكثر الناس طمأنينة فإذا بدا غاضبًا، فإن هناك ما يغضب الله، وهم أحرص الناس على مرضاته - ﷻ -.

كما أثَّرت حالة الغضب على تكوين السياق البلاغي فقد جاء صدى لها حيث صدَّر التعبير بالاستفهام الإنكاري : (أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟) وأم منقطعة بمعنى بل والهمزة للإنكار، ترقياً من الأهون إلي الأغلظ[١٠١]

من الملاحظ أنه قدم الجار والمجرور (أبهذا) الذي هو المفعول في الأصل وسلط عليه الإنكار بمعنى ما كان ينبغي الإقدام على مثل هذا ولم يؤمروا به ولم يرسل به إليهم، وقد أشار الإمام عبد القاهر إلي أن المفعول إذا ولى أداة الاستفهام كان بمثابة من ينكر أن يقع الفعل عليه أو يجترأ عليه ؛ قال :(و اعلم أن حال المفعول يقتضى أن يكون الإنكار في طريق الإحالة والمنع من أن يكون بمثابة أن يوقع به مثل ذلك الفعل)[١٠٢]، وإيقاع الإنكار على المفعول أبلغ ؛ لأنه مع تأكيده لوقوع الفعل يؤكد أن هذا المفعول بمثابة من لا يجترأ علي الخوض في مثله، وهو ما يفيده تقديم الجار والمجرور (بهذا) في الحديث .

وقوله(إنما هلك من قبلكم ...) استئناف بياني؛ لأنه جواب لسؤال سائل لم تنكر هذا الإنكار ؟ وقد جاء في أسلوب قصر بـ (إنما) لقصر هلاك الأمم علي التنازع

(١٠١) المرجع السابق الصفحة نفسها.
(١٠٢) ينظر دلائل الإعجاز ص ١٣١.

في القدر بياناً لخطره، وقد استخدم(إنما) طريقاً للقصر، وهي تُستخدم عادة في أمر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة)[١٠٣] والمعنى معها لا ينهض أن يكون مثار جدل أو إنكار حتى إن أنكره المتكلم فإنكاره على غير أساس ولعل الرسول- ﷺ - نزّل المتنازعين في القدر منزلة المنكرين لغفلتهم عن كونه المهلك للأمم وتنازعهم فيه؛ فخوطبوا بذلك تنبيهاً على موضع الهلاك .

والمتأمل لاختيار الرسول - ﷺ - للألوان البلاغية في العملية التعليمية في حديثه يجد أنها تحمل دفقة من وجدانه المشتعل خوفاً على أمته من أسباب الشقاق والهلكة لذلك بدأ بأسلوب الإنكار بالاستفهام، ثم صعَّده بتكراره مع مستفهم عنه آخر ثم أسلوب القصر لهلاك الأمم على هذا الفعل المنكر، ثم الأسلوب الخبري لفظاً الإنشائي معنى ؛لأنه بمعنى القسم القاطع لمادة الخلاف (عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه...) أي: أقسمت عليكم، وأوجبت، والتي تؤكد الإصرار على منع الفتنة، وتصعَّد الإحساس بعظم الذنب إلي أبعد مدى حتى لا يعاوده أحد .

ومن المواقف الطارئة التي استثمرها الرسول - ﷺ-في التربية والتعليم ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَجُلا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-:(وَعَلَيْكَ السَّلامُ ارْجِعْ، فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ، فَرَجَعَ، فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ، فَقَالَ : (وَعَلَيْكَ السَّلامُ ، فَارْجِعْ، فَصَلِّ ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ . فَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الَّتِي بَعْدَهَا عَلِّمْنِي يَا رَسُولَ اللَّه ؟ فَقَالَ : إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ، فَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ

(١٠٣) ينظر دلائل الإعجاز ص ١٠٨.

حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّهَا)[١٠٤].

وفي هذا الحديث يُعلِّم الرسول - ﷺ-فردًا من أفراد الأمة إتقان أهم أركان الإسلام، ويقوِّم خطأ الاضطراب ونقص ركن الطمأنينة في الصلاة،والذي يجردها من مضمونها، ويجعلها مجرد حركات، ويأتي على الطمأنينة التي توفر الخشوع الذى يحقق اتصال العبد بربه، والذى يعود عليه بالمراقبة، ويمنع الفواحش ويدفع إلى القربات سعيًا في كل أبواب الخير.

وتتسم طريقة الرسول- ﷺ-التعليمية في تقويم خطأ هذا المصلى المتسرع المضيع للطمأنينة بعدة سمات منها: استخدام أسلوب الأمر المباشر والصريح في قوله:(ارجع فصل) مع فعل الأمر (صل) مرتبطاً به بالفاء في إشارة إلى أنها السبب في الأمر بالرجوع.، كما استخدام أسلوب التوكيد (فإنك لم تصل) مرتبطًا بما قبله بفاء السببية في إشارة إلى أن من لم يؤد الصلاة حقها من الطمأنينة كمن لم يؤدها، ولغرابة الخبر حيث إن المصلى يرى أنه قد أدى الصلاة، فأكد النفي بـ(إن) مع اسمية الجملة حتى يقرر في نفسه الخطأ الذي وقع فيه بنقص ركن الطمأنينة.

التكرار وسيلة مساعدة في العملية التعليمية .

واستخدام الرسول- ﷺ- لأسلوب التكرار لتقرير المعنى المراد في مجال التعليم وتقرير الحقائق وتقويم الخطأ، ولفته إليه بطريقة عملية، فقد كرر الجملة نفسها:(وعليك السلام فارجع فصل فإنك لم تصل) وكان من الممكن أن يوجهه إلى خطأه مباشرة لكنه بهذا الأسلوب حقق عدة فوائد: منها أنه ترك للمتعلم فرصة ليفتش في نفسه، ويراجع عمله، ويبحث عن سبب أمر الرسول- ﷺ- له بالإعادة ، وذلك أدعى إلى ثبات الواقعة في نفسه على مر الأيام.، كما أن إعطاء

(١٠٤) صحيح مسلم / كتاب الاستئذان / باب من رد فقال عليك السلام / حديث رقم ٦٣٥١.

المعلومة للشخص إذا اهتم بمعرفتها وسأل عنها، وتعلقت بها نفسه أوقع أثراً في حسه، وأحفظ في ذهنه من إعطائها ابتداءً دون سؤال، ولا تشوف.[١٠٥]

وفي هذا التكرار إشارة إلى نفى كمال هذه الصلاة التي على هذه الكيفية مهما تكررت مما يؤكد أهمية ركن الطمأنينة الذى يوفِّر الخشوع لدخول العبد لحضرة الرب، وبلوغه منزلة الزلفى عند ربه حيث استجابة الدعاء، ومغفرة الذنوب وصفاء النفوس، وعطايا أخرى لا يحيط بها الوصف.

كما كرر جملة (تطمئن) خمس مرات تأكيدًا على ضرورة هذا الركن ووجوب انسحابه في كل أركان الصلاة مما يستلزم ضرورة أن يفرغ الإنسان نفسه عند الصلاة من كل أمور الدنيا عند تكبيرة الإحرام، وأن يقبل عند استقبال القبلة على الله بقلب خاشع ليس فيه سواه حتى يقضى صلاته ؛ ولذلك أمره في نهاية الحديث: (ثم افعل ذلك في صلاتك كلها) إشارة إلى تعميمه في كل أجزائها فرضاً كانت[١٠٦] أو نفلاً، وإشارة الرسول- ﷺ- (ذلك) التي للبعيد إلى فعل ذكره من قريب يوحى بارتفاع شأنه وعلو مكانته تنويهاً بفضله.

واستخدام أسلوب الشرط في قوله:(إذا قمت إلى الصلاة، فأسبغ) واستخدام (إذا) دون (إن) إشارة إلى تحقق الوقوع لما رأى من حرص الرجل على أداء الصلاة،وتعلق الجواب بالشرط يفيد ضرورة توفر ركن الطهارة بإسباغ الوضوء.

والتعبير بالإسباغ يفيد العناية والتأكيد على إتمام الوضوء بكل شروطه وواجباته.

وتعدية الفعل (قمت) بـ(إلى) تأكيد على فضل الصلاة وضرورة العناية بها.

واستخدام الرسول- ﷺ- لأدوات العطف لضبط حركة الزمن في أداء الصلاة حيث استخدم- ﷺ- الفاء في موضع تقويم الخطأ.

---

(١٠٥) ينظر الأساليب النبوية في معالجة أخطاء الناس للشيخ محمد صالح المنجد / صـ ٥٦ / ط. دار الفجر.

(١٠٦) ينظر عمدة القاري / جـ ٤ / صـ ٤٥٥.

أولاً : في تنبيه المتعلم إلى موضع خطئه في عجلته حيث رتبت الفاء بين الأمر بالرجوع والأمر بالصلاة دون فاصل زمنى.ثانياً: في ربط جواب الشرط بفعله : (إذا قمت إلى الصلاة، فأسبغ الوضوء..) في إشارة منه إلى العجلة في السعي إلى الخير وعمل الآخرة، فإذا دخل في أعمال الآخرة بالصلاة أو غيرها ترك الزمن يمر دون حساب ، ولذلك استخدم (ثم) تسع مرات بعد ذلك – إشباعاً لركن الطمأنينة التي تحقق غرض الصلاة في تهذيب النفس، وتحقيق الصفاء والدخول إلى حظيرة القدس.

ومن المواقف الطارئة التي استثمرها الرسول – ﷺ–في التعليم ما ورد عَنْ عَائِشَةَ – رضي الله عنها – قَالَتْ خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– يُصَلِّي .... فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَإِنَّهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَكَبِّرُوا وَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ إِنْ مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا أَلَا هَلْ بَلَّغْت ؟)[١٠٧]

في هذا الحديث الشريف يعلِّم البني – ﷺ– أصحابه والأمة كلها من بعدهم العقيدة الصحيحة ، والنظرة الصحيحة للأحداث ، ويقوِّم خطأين يبدوان منفصلين وهما: خطأ الاعتقاد بأن الشمس والقمر ينخسفان لموت أحد في حين أنهما من آيات الله ولا يخسفان لموت أحد ولا لحياته وعلى الإنسان المؤمن إذا رأى ذلك أن يكبر الله اعترافاً بقدرته، ويدعو الله ليقيه غضبه وعذابه، ثم يتبع القول بالفعل ويصلى ويتصدق.والخطأ الثاني : هو خطأ الزنى – والعياذ بالله – وموقف الله من هذا الفعل،فالزاني معاقب في جميع المواقف ففي الدنيا يحيا بين الفقر ، وانتهاك

(١٠٧) صحيح مسلم / كتاب الكسوف / الحديث : (٩٠١).

عرضه، وعند الموت يشدد عليه في خروج روحه، وفي البرزخ يوضع في مثل التنور يقلى به، وفي الحشر تشتعل وجوه الزناة نارًا، ثم يشدد عليهم في الحساب، ويمضى بهم إلى النار.

والحقيقة أن هذين الخطأين ليس بينهما انفصال في المنهج التربوي النبوي؛ لأن فساد العقيدة يؤدي إلى التردي في الفواحش ، والزنى من أخطرها، والمنهج النبوي متكامل في علاج الظاهر والباطن ، أخطاء الاعتقاد وأخطاء الجوارح .

والمتأمل لأسلوب النبي-ﷺ- في تعليم أصحابه في هذا الحديث وبيان خطر فاحشة الزنى يجد أنه قد بُني بناءً نفسيًا وجدانيًا اعتمد فيه على عدة أساليب تربوية، وتعليمية في أعلى طبقات البلاغة منها:

أولًا: تعميق الانتماء للأمة المحمدية وتربية الاعتزاز بها، وأن أفرادها يجب أن يتحلوا بطهارة الظاهر والباطن تجد ذلك في النداء الذى بدأ به حديثه في قوله (يا أمة محمد!)وبتحليل النداء تحليلًا بلاغيًا يتبين ما يلي:

(أ) استعمال أداة النداء (يا) وهي أداة لها خصوصية من بين أدوات النداء ومنها أنها تسمح بمد الصوت الذى يحمل نبرة الشفقة التي تهش لها القلوب فتطرق لها الأسماع مع ما توحي به من علو منزلة الأمة وارتفاع شأنها.

(ب) استخدام كلمة (أمة) كمنادي إشارة إلى الوحدة والانتماء وتنبيه إلى ما يجب على أفرادها من حقوق تجاه بعضهم والتي منه حفظ الحرمات والذبِّ عنها لا انتهاكها، وهذا البناء التعبيري يمهِّد وجدان المتعلم لما يستقبل من المعاني.

(ج) إضافة كلمة (أمة) إلى نفسه -ﷺ- تشريف وتعظيم للمتلمين، وتنبيه إلى ما يجب أن تكون عليه أخلاق هذه الأمة كما أخبر الله - عز وجل - في قوله تعالى :﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾(سورة آل عمران آية ١١٠) .

(د) إضافة الأمة إلى الاسم الظاهر الطاهر (محمد) بدلًا من الضمير فيه مدح للمنادى وفيه مداعبة لوجدان المتعلمين باسم حبيب إلى نفوسهم، ورفع للنموذج الواجب الاقتداء به بين سمعهم وبصرهم وتشويق يمكّن للمعنى في النفوس، ويقرره في الأذهان.

ثانيًا : تعميق المراقبة لله والخوف من بطشه ، نجد ذلك في أسلوب النفي المستغرق لكل من سوى الله في قوله (وإن من أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته...) والتعبير بأفعل التفضيل (أغير) يصعد هذا المعنى وينذر بالخطر المحدق بهذه المعصية.،والتعبير بلفظ العبد والأمة إشارة لما يجب عليهما من القيام بحق العبودية لله وعدم اقتراف الفواحش.

وإضافة العبد والأمة للضمير العائد على لفظ الجلالة (الله) إضافة تشريف وتكريم، وفيها زيادة تحذير من الوقوع في الفاحشة لمن هذه صفته، وبيان لسبب شدة الغضب بكون العبد والأمة منتسبين لله.

ثالثًا : بناء الوازع الديني وتعميق الرهبة، وقد بدا ذلك من قول الرسول -ﷺ-: (يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً) وقد بدأ النبي-ﷺ- بنداء التكريم والمضاف إليه، والذى يعزز – كما أسلفنا الذكر – الشعور بالانتماء، وينادى بالتحلي بأخلاق الأمة الفاضلة.

ثم يأتي القسم النبوي (والله) ليهز النفوس هزًا عنيفًا، ويوحي بجلال الأمر، وجلال قدره، وارتفاع شأنه حيث أقسم الرسول -ﷺ-دون داعٍ من المخاطبين، وإنما داعيه شعوره المتنامي بهول ما ينتظر الناس في ملاقاة الموت والبرزخ والحشر والنشر ومنظر النار. ورغبته في نقل هذه المشاعر لأمته تحذيراً وترهيباً من انتهاك حرمة الله والتردي في الفاحشة.

ثم تأتى جملة الشرط (لو تعلمون ما أعلم..) لتثير في النفوس علامات استفهام غير متناهية وتجعل القلوب والعقول تذهب في تصور ما علم الرسول -ﷺ- من

هول ما ينتظر الناس كل مذهب وتترك كل عقل يتصور ما يستطيع تصوره دون شرح أو تعليق.، وجواب الشرط قوله : (لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً) وهو كناية عن شدة الهول وخطره.

والمقابلة بين قوله (لبكيتم كثيراً) وقوله (ولضحكتم قليلاً) توضح معنى عظمة الهول وتؤكده بإثبات كثرة البكاء إشفاقًا ووجلًا لما يُنتظر وقلة الضحك لغلبة الهم على متع الدنيا وصفاء النفس.

وقوله (ألا هل بلغت؟) استفتاح منبه محذر تلاها استفهام مقرر مشهد أعذر بعد أن أنذر فالعبارة بتركيبها تترك في نفس المخاطب صدى لا يزال يتردد يضمن للمعنى الثبوت والبقاء.

ومثله ما جاءعَنْ زَيْدِ ابْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- صَلاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ! قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ](١٠٨)

في هذا الحديث يعلم الرسول -ﷺ-أصحابه أمرًا عقديًا يتصل بدين المؤمن في نظرته للأحداث الكونية التي ينظر إليها الملحدون على أنها من صنع الطبيعة ، وهو خطأ عقديٌ يقع فيه كثير من الناس، إما بالخطأ اللفظي بقول ذلك باللسان فقط دون اعتقاد، وإما بخطأ في الاعتقاد إذا نسب هذا المطر للنوء دون الله، وهو يعلم فهو مشرك بالله.ولتقويم هذا الخطأ اتبع الرسول -ﷺ- طريقة تعليمية راقية اتخذت عدة أشكال بلاغية دقيقة منها:

(١٠٨) صحيح البخاري / كتاب الصلاة / باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم / حديث رقم ٨٤٦.

أسلوب الاستفهام الذي خرج عن معناه الحقيقي ليفيد عدة معانٍ بلاغية في قوله: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟) فمنها التنبيه ليحرك عقل المخاطب ومنه التشويق والإثارة خاصة إذا تعلق فعل القول بلفظ (رب) مع إضافته لكاف الخطاب التي جعلت المخاطبين في جزء من الحوار، وأعطتهم خصوصية زادت النفوس تعلقاً بالخبر، واستشرافاً للرسول -ﷺ- لسماع مقول القول.

ثم المقابلة البديعة بين جملة النموذج الذي وافق الفطرة، ونسب الفعل لخالقه؛ وبين جملة النموذج المخطئ الذي نسب الفعل لغير الله.

ففي قوله: (من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب) وبين قوله: (وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب)فقد قابل بين مؤمن بي، وبين (مؤمن بالكوكب)، وبين (كافر بي)، (وكافر بالكوكب).

وهذا التقابل بين المعاني المتضادة يؤكدها، ويوضحها، ويبين المفارقة بين قائل وقائل ، وهو من الوسائل التعليمية الناجحة .

والعبارة من أساليب الإثارة والتشويق لأنها أجملت في قوله: (أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر) لأن هذا التقسيم أعطى معنى يكتنفه الغموض، ويحتاج إلى توضيح عن سبب هذا التقسيم، وكيف حدث إيمان البعض. وكفر البعض، ثم نتيجة هذا التقسيم ومصير كل قسم فأشعرهم بالمعنى من جهة، وأخفاه من جهة أخرى، ثم جاء التفصيل بعد هذا التقسيم ليكشف السبب وكيفية حدوثه ونتيجة كل قسم.

وكما قال سعد الدين: (أن الإدراك لذة والحرمان منه مع الشعور بالجهل بوجه ما – ألم فالمجهول إذا لم يحصل به شعور ما، فلا ألم في الجهل به وإذا حصل به الشعور بوجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم به وتألمت بفقدانها إياه، فإذا حصل لها العلم به على سبيل الإيضاح كملت لذة العلم به للعلم الضروري بأن

اللذة، عقيب الألم، أكمل وأقوى، وكان لها لذتان، لذة الوجدان ولذة الخلاص عن الألم"[١٠٩]

ومما تجدر الإشارة إليه، وهو ما كان المعلم الأعظم-ﷺ-يراعيه دائمًا في أحاديثه: الظرف المكاني والزماني للحديث مع ملابساته.

فقد كان ظرف الحديث المكاني في الحديبية ، وهي قرية قريبة من مكة سميت ببئر هناك، وقيل سميت بشجرة هناك حدباء بعضها في الحل، وبعضها في الحرم، وهي أبعد أطراف الحرم عن البيت، وهي الموضع الذي صدَّ فيه المشركون رسول الله -ﷺ- عن زيارة البيت، وفي الحديبية كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة.[١١٠]

وهذا الموضع بهذه المثابة له تأثير على نفوس المتعلمين بماله من منزلة عندهم تجعلهم أكثر استجابة للقضية التي يعالجها الحديث وهي قضية فصل الشرك عن الإيمان كما فعل إخوانهم حين بايعوا رسول الله -ﷺ-تحت الشجرة في هذا الموضوع فانفصلوا عن المشركين، وكما فعل المشركون حين انفصلوا عن رسول الله -ﷺ-بصدهم له عن البيت فانفصلوا بشركهم عن الإيمان

ومن ملابسات الحديث وقوعه (إثر سماء) بعد نزول المطر وتسمية المطر سماء من المجاز المرسل وعلاقته المجاورة لنزول المطر من جهتها.

وهذا المُلابس يجعل توقيت الحديث أنسب الأوقات للعملية التعليمية ، ومناقشة هذه القضية؛ لأن جمهور المتعلمين يعايشون الحدث بالإضافة إلى انشراح نفوسهم، وإحساسهم بفضل الله لشدة ارتباط حياتهم بالمطر.

والنفس – كل نفس – في وقت سعادتها وانشراحها تكون أكثر قبولًا لما يلقى إليها – خاصة مع إحساسها بنعمة الله عليها.

---

(١٠٩) المطول لسعد الدين التفتازاني / صـ٣٩١.

(١١٠) ينظر: عمدة القاري / جـ٤ / صـ٦٣٠.

أيضاً وقت الحديث (بعد صلاة الصبح) وهو وقت سكون وخشـــوع، لأن النفـــوس تكون قد أخذت قسطها من الراحة وهو أيضاً بداية يوم جديد يشرق، والخبـــر – والحالة ثم – يجد طريقه في سهولة إلى عقول المتعلمين ، وقلوبهم، فيستقر منها في موطن لا يُغفل عنه .

وعلى ذلك فإن تلك الظروف،والملابسات هي التـــي هيئـــت للعمليـــة التعليميـــة، وتفصيل هذه القضية الخطيرة، ومهدت النفوس لاستقبالها ، وكانت الوقت الأمثل لتقرير هذه الحقائق وتنقية العقائد .

كذا يجب على كل معلم اختيار الوقت الأمثل لمناقشة القضايا المختلفة وعليـــه أن يستثمر الأحداث الجارية للتربية والتعليم وتصحيح ما يقع من أخطاء يراها.

ومن المواقف التي استثمرها رسول الله -ﷺ- في التربية والتعليم فيما وردعَـــنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ خَرَجَ النَّبِيُّ-ﷺ-مِنْ بَعْضِ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَـــانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا فَقَالَ : يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، وَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ كَانَ أَحَدُهُمَا لا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ. وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ .ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا بِكِسْـــرَتَيْنِ أَوْ ثِنْتَيْنِ فَجَعَلَ كِسْرَةً فِي قَبْرِ هَذَا وَكِسْرَةً فِي قَبْرِ هَذَا فَقَالَ : لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا)(١١١)

الحديث يعرض مشهدًا من مشاهد الغيب في البرزخ رآه الرسول -ﷺ- بما كشف الله له من الغيب،فيستثمره في التعلـــيم والتربيـــة التـــي تحـــافظ علـــى نزاهـــة المجتمع،وتضمن سلامته، فحذر بطريقة عبقرية من التلبس بفعل هذين المقبورين المعذبين، وبيَّن خطر استخفاف الإنسان بالاستتار من البول وخطر المشي بالغيبة.

قال ابن حجر في وجه المناسبة للجمع بين هاتين الخصلتين في هذا الحديث: (أن البرزخ مقدمة الآخرة، وأول ما يقضى فيه يوم القيامة من حقـــوق الله الصـــلاة،

(١١١) صحيح البخاري / كتاب البر والصلة / باب ما يكره من النميمة / حديث رقم ٦٠٥٥.

ومن حقوق العباد الدماء، ومفتاح الصلاة التطهر من الحدث والخبث، ومفتاح الدماء الغيبة والسعي بين الناس بالنميمة بنشر الفتن التي يسفك بسببها الدماء)[١١٢]

وأسلوب الرسول -ﷺ- في تقويم هذين الخطأين أسلوب عملي تعليمي يعرض فيهما لنموذجين واقعين تلبسا بالخطأ أحياءً وتلبسا بعقابه أمواتاً في حياة البرزخ وهو بذلك يربط الغيب بالمشهد ويلغي الفارق بين الخطأ والعقاب مما يجعل المخاطب أشد حذراً من الفعل وأشد تأثراً بالموقف، فالمكان عند القبور والحدث سماع الرسول -ﷺ- لصوت أناس يعذبون، وهذه الملابسات تجعل المخاطب في أتم اليقظة والاستشراف لمعرفة الخبر.

وقول الرسول-ﷺ-: (يعذبان وما يعذبان في كبير، وإنه لكبير) وهذا الأسلوب من الصياغة يصعِّد التشويق، ويثير الذهن؛ لأنه ذكر ابتداءً أنهما يعذبان، ثم أعاد الفعل نفسه مسبوقًا بأداة النفي، فذكره مثبتًا مرة ومنفيًا مرة (يعذبان وما يعذبان) (وما يعذبان في كبير وإنه لكبير) ٠

ثم علَّق الفعل المنفي بالجار والمجرور (في كبير) في إشارة إلى أن الفعل الذي يعذبان فيه يسير عندكم لا مشقة فيه أو لا ترونه من الكبائر ، ثم عاد وأكَّد الفعل بإن مع اسمية الجملة وضمير الشأن ومن المعلوم أن ضمير الشأن يؤتى به على جهة المبالغة وتعظيم الأمر بذكره مبهماً ثم تفسيره[١١٣] مما يزيد الأمر تشويقًا وإثارة مع كون الفعل المؤكد مثبتًا بعد أن قرر أنه ليس بكبير عند الناس عاد، وأكد أنه كبير عند الله مما يحدث طرافة وخلابة تقدح زناد العقل، وتثير انتباهه،

---

(١١٢) فتح الباري / ج١٦ / صـ٣٥٣.

(١١٣) ينظر: الطراز للعلوى / صـ١٧٠ / ط. دار الكتب العلمية / تحقيق. محمد عبد السلام شاهين، والإتقان للسيوطي / جـ٢ / صـ٢٨٧ / تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم / ط. دار التراث.

حتى يدرك مضمون الخبر، فيشعر بلذة المعرفة بعد التطلع والاستشراف مما يثّبت الخبر، ويقرره لديه أتم تقرير.

وقولـــه: (وإنه لكبير) احتراس يمنع توهم كون هذين الـــذنبين مـــن الصـــغائر.

وقولـــه: (يعذبان...) بضمير المثنى المفسر بعد قولـــه: (كان أحدهما...) وهـــو نوع من التشويق بأسلوب الإيضاح بعد الإبهام.

وقولـــه: (لا يستتر من البول ...) أي لا يستر جسده ولا ثوبه من ممارسة البول وهو كناية عن عدم التنزه من البول وتدل على وجوب الاستنجاء إذ هو المـــراد بعد الاستتار من البول، ويبعد أن يكون المراد الاستتار عن العين ولكـــن كلاهمـــا واجب كما ذكر الإمام العيني[١١٤]وقولـــه: (يمشي بالنميمة) كناية عن ملازمته لها واستمراره فيها وإصراره عليها.

وقولـــه: (لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا) أسلوب ترجي يوحي بعظـــم هـــذين الذنبين لأن الرسول -ﷺ- صاغ معانيه في ثوب الرجاء ولم يدع لهمـــا مباشـــرة واستخدم أسلوب الترجي، ولأن الرجاء تعلق بالتخفيف دون رفع العذاب عنهمـــا كلية مما يوحي بخطر الذنب وخاصة إذا كان فاعل الرجاء الرســـول -ﷺ- أكـــرم الخلق على الله ومدة هذه التخفيف بسيطة وهي مدة بقاء الجريدتين رطبتين مما يدل على حجم الذنب وعظم عقابه.

وقولـــه: (لعله أن يخفف عنهما) أي: لعله يخفف ذلك من ناحية التبرك بأثر النبي -ﷺ-، ودعائه بالتخفيف عنهما، فكأنه -ﷺ- جعل مدة بقاء النداوة فيهما حداً لما وقعت له المسألة من تخفيف العذاب عنهما، وليس ذلك من أجل أن في الرطـــب معنى ليس في اليابس[١١٥]

---

(١١٤) ينظر: عمدة القاري / جـ ٢ / صـ٥٩٩.

(١١٥)ينظر: عمدة القاري / جـ ٢ / صـ٥٩٤.

ومن المواقف الوجدانية الطارئة التي استثمرها الرسول -ﷺ- لتعليم أصحابه ، وأمته ما ورد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ-رضي الله عنه- قَالَ اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ شَكْوَى لَهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ -ﷺ- يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهم فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ فَقَالَ قَدْ قَضَى قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَبَكَى النَّبِيُّ -ﷺ- فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ النَّبِي -ﷺ- بَكَوْا فَقَالَ أَلَا تَسْمَعُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ أَوْ يَرْحَمُ وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ)[١١٦].

في هذا الحديث أكثر من وسيلة تعبيرية رافقت الحديث وكان لها أثر كبير في تقرير المعاني، وتثبيتها والمحافظة على وعي ويقظة المتعلمين من حوله فبكاء الرسول - ﷺ - على سيدنا سعد كناية عن حزنه لفراقه مع دلالته علي عظيم محبة الرسول - ﷺ - وتقديره لسيدنا سعد - رضي الله عنه- وقد كان له تأثير بالغ من عدة أوجه منها : التأثير على المخاطبين الذين أدهشهم بكاء الرسول - ﷺ - ؛ لأنه نهى عن النياحة على الميت، فتعلقت به أبصارهم، وأصغت له أسماعهم حتى بكوا ببكائه وهو ما يعد تمهيدًا لاستقبال المعنى ، ومنها أنه بنى عليها المعنى الذي يريد تقريره وهو:(أن الله لا يعذب ببكاء العين إذا كان شفقة دون اعتراض، أو مخالفة، أو كان قبل موت الميت ولذلك سأل الرسول - ﷺ - قبل أن يبكى(هل قضى؟)فلما أخبر أنه ما زال حيًا بكاه.

ومنها أنه افتتح على إثرها الكلام بقوله : (ألا تسمعون ؟) بمعنى اسمعوا.، فهو استفهام تحضيض على السماع، وتنبيه لما سيقال، وفيه إشارة إلي أنه فهم من بعضهم الإنكار، فبين لهم الفرق بين الحالتين[١١٧].

---

(١١٦) صحيح البخاري / جـ : ١ ص : ٤٣٩ / كتاب الجنائز / باب البكاء عن المريض / حديث ١٣٠٤

(١١٧) فتح الباري / جـ :٣ ص : ١٥٣/ كتاب الجنائز / باب البكاء عند المريض / حديث ١٣٠٤.

ثم جاءت إشارته -ﷺ- (بيده إلي لسانه) وهي من الوسائل التعليمية المهمة ليقرر المعنى بحاسة البصر مع السمع،، ثم بني عليها السياق البلاغي بعدها فجاء اسم الإشارة (هذا) متصلا بالباء أي بسبب هذا.، والإشارة تميّز المشار إليه أكمل تمييز ويحفها الطباق بين (يعذب ويرحم) ليؤكد المعنى ويقرره.

ومنه ما ورد عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ، قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَهَبَطْنَا فِي هدَّةٍ مِنَ الأَرْضِ ، فَرَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-:(أَيُّهَا النَّاسُ ، أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا ، إِنَّكُمْ إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا قَالَ : وَدَعَانِي وَكُنْتُ مِنْهُ قَرِيبًا ، فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ ، أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ ؟ قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ قُلْ : لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ) . ([١١٨])

وتأمل هذا الأسلوب التربوي الراقي الذي يوثق المحبة بين المعلم والمتعلم في نهاية الحديث والذي حكاه الراوي، وتعبيره يكشف عبقرية الأسلوب حيث قال (دعاني) ثم جملة (وكنت منه قريبًا) التي تدل على مزيد العناية التي تشرح الصدور ، ثم نداؤه باسمه الصريح (يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ)ثم استخدامه لأسلوب التشويق بالاستفهام : (أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ ؟) ولا تخفى عبقرية اختيار الألفاظ في العبارة بداية بلفظ (أدلك) الذي يوحي بالهداية ولفظ (كلمة) الذي يدل على سهولة العمل ولفظ (كنز) الذي يبشر بالخير العظيم،ثم جاء ختامها الأهم بلفظ الجزاء الأتم في الدلالة على الثواب، والذي يداعب النفس بمجمع المُنى وهو لفظ (الجنة) .

وحكاية الصحابي للواقعة التعليمية بكل دقائقها دليل على نجاح العملية التعليمية وتحقيق الأساليب النبوية للغاية التربوية.

---

١١٨ الدعوات الكبير (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي)المتوفى : ٤٥٨ هـ / ج:١/ ٢٢٧/ الحديث ١٥٤/المحقق : بدر بن عبد الله البدر/الناشر : غراس للنشر والتوزيع – الكويت / الطبعة : الأولى للنسخة الكاملة ، ٢٠٠٩ م .

المبحث السادس
استخدم القصة كوسيلة تعليمية، وتربوية .

القصص النبوي بسبيل القصص القرآني من ناحية المصداقية ودقة الأهداف ، ونبل الغايات التي تسعى إليها ، ولها دور مهم في مجال التقويم والتربية والتعليم لغرس المفاهيم السامية ، وتأصيل مكارم الأخلاق وإيجاد المثل العليا للنماذج البشرية المؤثرة .

والنفس البشرية بفطرتها تميل إلى القص، وتهوى استماعها ، وتتابعها بيقظة قلب ، واستشراف نفس ومن ثَمْ فهي وسيلة تعليمية سهلة ميسرة مهمة لغرس القيم النبيلة ، وتقرير المعاني دون شعور بملل ينفِّر المتعلم ، أو يكد ذهنه ، أو يتسبب في شروده عن دائرة الحوار .

وقد أحسن المعلم الأعظم -ﷺ- توظيفها لتحقيق فوائد كثيرة منها : تقرير المعاني وتوضيح بعض المفاهيم ، وغرس القيم النبيلة ، ومنها الموعظة ، والاعتبار ،ومنها تعميق الإيمان، ومنها إيجاد القدوة والمثل الأعلى في الصبر والتحمل والجهاد وغيرها، وتختلف هذه القصص التربوية من ناحية الطول والقصر بحسب ما يمليه مقام الفكرة، فقد تقصر كما ورد عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- : « أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ لاَ غَيْرَ أَنِّى أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ »(١١٩). وقد تطول كقصة الثلاثة الذين آواهم

١١٩ صحيح مسلم / ج: ٨ ص : ١٢/كتاب البر والصلة والأدب / باب في فضل الحب في الله / الحديث (٦٧١٤) .

المبيت إلى الغار فأغلق عليهم، فقالوا إنه لن ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فأخذ كل منهم يدعو الله ويتشفع بما يظنه أفضل أعماله) (١٢٠)

كما تقرر القصص فضل بعض الأعمال على غيرها في إخراج العبد من المحن وهذه القصص تختلف أيضًا من ناحية البساطة والعمق والحوار ومفاجأة الحلول أو التبشير بها مما يُطرف السامع، ويدهشه كما ورد عن أبي هُرَيْرَةَ – ﷺ – قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ–« بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً لَهُ قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ الْبَقَرَةُ فَقَالَتْ إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا وَلَكِنِّى إِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ ». فَقَالَ النَّاسُ سُبْحَانَ اللَّهِ. تَعَجُّبًا وَفَزَعًا. أَبَقَرَةٌ تَكَلَّمُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– « فَإِنِّي أُومِنُ بِهِ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ–« بَيْنَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً فَطَلَبَهُ الرَّاعِي حَتَّى اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الذِّئْبُ فَقَالَ لَهُ مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِى ». فَقَالَ النَّاسُ سُبْحَانَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ–« فَإِنِّي أُومِنُ بِذَلِكَ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ».(١٢١)

هذه القصة تضم مجموعة من الدروس التربوية والتعليمية في إطار قصصي لا يخلو من الطرافة التي تزيد من كلف المتعلم بمتابعة القصة حتى تمام الدرس .

والمتعة والتسلية ، وإشباع الرغبة الإنسانيّة في معرفة العجائب ليس غاية في القصص النبوي بل هي وسيلة لغرض عظيم هو تقرير ما تحمله من دروس ، وعظات، تعمل على ترسيخ العقيدة وتهذيب الأخلاق؛ فتحدث بذلك تصحيحًا للتصوّرات وتقويمًا في السلوك .

ولأجل هذا الهدف العظيم كان النبي –ﷺ– يستثمر كل فرصة في تعليم أصحابه وتوجيههم ، خصوصًا عند اجتماعهم للصلوات ، والقصة الأولى في الحديث تقص

---

(١٢٠)صحيح مسلم / ج: ٨ ص : ٨٩/كتاب الرقاق / باب في فضل الحب في الله / الحديث (٧١٢٥) .

(١٢١) صحيح مسلم / ج : ٧ / ص : ١٠٧ / باب من فضائل أبي بكر الحديث (٦٣٣٤).

أعجوبة خارقة للعادة عن بقرة تكلمت وطيٌّ هذه القصة مجموعة من الدروس التربوية بدت في أسلوب التعجب السماعي ، وما حمله الاستفهام التعجبي في قول الناس (سُبْحَانَ اللَّهِ. تَعَجُّبًا وَفَزَعًا. أَبَقَرَةٌ تَكَلَّمُ ؟) منها :

١-تقرير قدرة – الله تعالى – بإنطاق الأعجمي،وقد أكد هذه الحقيقة الرسول- ﷺ – بقوله : (فَإِنِّي أُومِنُ بِهِ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ).

٢-فيما نطقت به البقرة في جملة النفي المؤكدة، وجملة الاستدراك المعطوفة عليها في قولها : (إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا وَلَكِنِّى إِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ) التأكيد على أن الله خلق كل دابة لغاية وفائدة، وقد أودع في فطرتها معرفة معينة بخالقها، وهي في ذلك خير من كثير من البشر الذين لا يهتدون إلى الحق، ويرفضون الإذعان له، ويتركون منهج الله قال -تعالى-: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)(الأعراف ١٧٩) .

٣-في تكرار الرسول – ﷺ – لقوله : (فَإِنِّي أُومِنُ بِهِ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ) عقب كل قصة تقرير لقضية الإيمان بالغيبيات التي يخبر بها عن ربه .

كما يقرر فضل الصحابيين الجليلين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- وتخصيصهما بالذكر في قضية الإيمان بالغيب يدعم، ويمهد لقيادتهما الأمة بعد رسول الله – ﷺ – فمن المنطقي أن يلي الخلافة بعد الرسول – ﷺ – من أشار إلى أنه أكثر أصحابه إيمانًا .

٤-في قصة الذئب مع الراعي تنبيه إلى فتن آخر الزمان التي تذهل الإنسان عن ماله وأهله وفيه إشارة إلى فقدان الراعي الشفيق في نهاية الزمان، وإسناد الأمر إلى غير أهله، وهو ما يفهم من قول الذئب : (فمن لها يوم السَّبُع ، يوم لا راعي لها غيري ؟ !) .

ومن القصص التي علَّم بها النبي- ﷺ - أصحابه خطر العجب وضرورة اللجوء إلى الله والمشورة في كل الأمورما ورد عَنْ صُهَيْبٍ ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- هَمَسَ شَيْئًا لاَ نَفْهَمُهُ ، فَقَالَ : أَفَطِنْتُمْ لِي ؟ قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : إِنِّي ذَكَرْتُ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ أُعْطِيَ جُنُودًا مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ : مَنْ يَقُومُ لِهَؤُلاَءِ ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : أَنِ اخْتَرْ لِقَوْمِكَ إِحْدَى ثَلاَثٍ : إِمَّا أَنْ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، أَوِ الْجُوعَ ، أَوِ الْمَوْتَ ، فَاسْتَشَارَ قَوْمَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالُوا : أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ نَكِلُ ذَلِكَ إِلَيْكَ خِرْ لَنَا ، فَقَامَ إِلَى صَلاَتِهِ - وَكَانُوا إِذَا فَزِعُوا فَزِعُوا إِلَى الصَّلاَةِ - فَصَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ أَمَّا عَدُوُّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ وَالْجُوعُ فَلاَ ، وَلَكِنِ الْمَوْتُ ، فَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا ، فَهَمْسِي الَّذِي تَرَوْنَ أَنْ أَقُولَ : اللَّهُمَّ بِكَ أُقَاتِلُ ، وَبِكَ أُصَاوِلُ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ). (١٢٢)

من الملاحظ في الحديث كثرة الوسائل التعبيرية التي تتعاضد مع القصة لتقرير المعاني، وتوكيدها، وتثبيتها، فقد بدأ الدرس التعليمي من ملاحظة ذكية من أحد المتعلمين في قول الصحابي: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-هَمَسَ شَيْئًا لاَ نَفْهَمُهُ) وهي تدل على المراقبة الدائمة من الصحابة - رضوان الله عليهم - لحركات نبيّهم -ﷺ-وسكناته ، ومنطقه وسكوته ، ليقتدوا بأفعاله؛ ولهذا استحقّ ذلك الجيل المنزلة العالية والتزكية البالغة من الله -تعالى - ومن رسوله -ﷺ-. وهذه الواقعة تشير إلى دور المتعلم في العملية التعليمية بمراقبة المعلم في كل ما يصدر عنه في إطارها ، فهو شريك فيها.

ثم جاء أسلوب الاستفهام الذي يأخذ بمجامع قلوبهم، وكامل وعيهم إلى أصل الدرس في قوله (أَفَطِنْتُمْ لِي؟)وهو استفهام للتقرير وقد اختار لفظًا فيه تزكية

---

(١٢٢)صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان.(محمد بن حبان أبو حاتم البُستي (المتوفى : ٣٥٤هـ) ج : ٥ ص : ٣١٢/ الحديث (١٩٧٥). المحقق : شعيب الأرنؤوط. الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة : الثانية ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م .

من المعلم للمتعلم وهو (أفطنتم) الذي يوحي بالذكاء والملاحظة والفهم .كما يسهم في دعم الدرس التعليمي المستفاد من القصة بالحوار بين أطراف العملية التعليمية حتى تحقق غايتها .والرسول – ﷺ – يستثمر كل موقف ليعلم أصحابه شيئًا ينفعهم في دنياهم، أو أخراهم،وقد استخدم هذه القصة ليعلم أصحابه تنقية العمل من شوائب الشرك والعجب الذي يبطل العمل وأبطال القصة نبي وقومه من السابقين .

والدروس التي تعلمها الصحابة من هذه القصة كثيرة منها تقرير خطر العجب ، كما تعلمهم التواضع لله مهما بلغت قوتهم ، وتعلمهم الاستسلام لأمر الله، والفزع إليه عند الشدائد بالصلاة، والتضرع كما تعلمهم الشورى .

ومن القصص التي علَّم النبي – ﷺ –فيها أصحابه أن الصبر عاقبته السلامة وأن فضل الله على خلقه ليس له حدود وأن حب المال فطرة في النفوس البشرية يجب ضبطه بضوابط الشرع الحكيم ، وصرفه وفق ما يرضي الله ما جاء في الحديث : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَى رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى يَا رَبِّ وَلَكِنْ لاَ غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ)(١٢٣)

حياة نبي الله أيوب عليه السلام – مليئة بالدروس التربوية ، والعبر ورحلته الطويلة مع البلاء معروفة بيّنها الله في كتابه، وأُشير إليها في عدد من المواضع في السنّة النبويّة، فقد أصيب بأنواع من البلاء في الأهل والمال، والنفس والبدن، فعوّضه الله عن ذلك كلّه؛ رحمةً منه وذكرى للعابدين .

وهذه القصة تتناول جانبًا آخر من حياته العامرة بعبق الإيمان الذي يستعذب الجهاد،والصبر ،ويفيض عليهاالشعور بالرضا في السراء والضراء حين أنعم الله

---

١٢٣ مسند الإمام أحمد بن حنبل (أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني) ج:٢ ص : ١١٤/ كتاب مسند أبي هريرة / الحديث (٨١٤٤) الناشر : مؤسسة قرطبة – القاهرة .

عليه بالصحة والعافية والمال والولد فأصبح غنيًا ثم زاده الله مالًا وأفاض عليه، ومن الدروس التعليمية في القصة : بيان عظمة رحمة الله على عباده وفضله، فقد ابتلى أيوب فصبر؛ فأنعم عليه بأحسن مما كان عنده إضافة إلى الأجر الذي ينتظره في الآخرة ، وهكذا كل مؤمن يصبر على ما يصيبه من البلاء يعوضه الله خيرًا مما فقد مع أجر الآخرة .

ومنها أن الإنسان مفطور على حبّ المال قال تعالى : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (آل عمران : ١٤) وعلى المؤمن أن يضبط هذا الشعور في حدود أمر الله ونهيه ويؤدي حق الله في المال ويصل رحمه ، ولا يشغله عن ذكر الله وشكر نعمه وان يقتدي بنبي الله أيوب عليه السلام حيث إن الرزق الذي تحصّل لأيوب لم يشغله عن الشكر الواجب لتلك النعم بالقول والعمل.

كما نتعلم من قصة نبي الله أيوب- عليه السلام- أنه لا غنى لعبد عن فضل الله مهما كثرت نعمه عليه، وخزائن الله لا تنفد، وهو كريم لا يبخل، ويجب على العبد شكر الله عند كل نعمة بالقول وبالفعل باستخدامها فيما يرضي ربه .

ومن القصص التي استخدمها الرسول -ﷺ-في تعليم أصحابه كثيرًا من الدروس والعبر ما ورد في الحديث عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ-قَالَ « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِدًا فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّى فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ.فَقَالَ يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ فَانْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّى فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ فَقَالَ يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ فَانْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّى فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ أَي رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ فَقَالَتِ اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ. فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا

وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا فَقَالَتْ إِنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ – قَالَ – فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِى إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ. فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فَقَالَ مَا شَأْنُكُمْ قَالُوا زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ. فَقَالَ أَيْنَ الصَّبِيُّ فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ دَعُونِى حَتَّى أُصَلِّىَ فَصَلَّى فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِى بَطْنِهِ وَقَالَ يَا غُلاَمُ مَنْ أَبُوكَ قَالَ فُلاَنٌ الرَّاعِى – قَالَ – فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا نَبْنِى لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ لاَ أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ؛ فَفَعَلُوا.

وَبَيْنَا صَبِىٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ فَقَالَتْ أُمُّهُ اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِى مِثْلَ هَذَا. فَتَرَكَ الثَّدْىَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ. قَالَ فَكَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– وَهْوَ يَحْكِى ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ فَجَعَلَ يَمُصُّهَا. قَالَ وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ سَرَقْتِ. وَهِىَ تَقُولُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَقَالَتْ أُمُّهُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِى مِثْلَهَا. فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا. فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ فَقَالَتْ حَلْقَى مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِى مِثْلَهُ. فَقُلْتَ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. وَمَرُّوا بِهَذِهِ الأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ سَرَقْتِ. فَقُلْتُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِى مِثْلَهَا.فَقُلْتَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا قَالَ إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا فَقُلْتُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ. وَلَمْ تَزْنِ وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا. (١٢٤)

علَّم الرسول – ﷺ – أصحابه في هذا الحديث خلال القصة مجموعة من الدروس بطريقة مشوقة تتسرب إلى النفوس، وتستقر في القلوب، وتحقق الإقناع في ثقة

١٢٤ صحيح مسلم / ج: ٨ ص : ٣ / كتاب البر والصلة / باب تقديم بر الوالدين على التطوع / الحديث (٦٦٧٣) الناشر : دار الجيل بيروت ، ودار الأفاق الجديدة ــ بيروت .

وهدوء يدعمان التأمل في تطوراتها متدرجة من العقد إلى الحلول، والقصة تضمنت دروسًا تربوية، وتعليمية كثيرة منها :

١-خطورة عقوق الوالدين وتركِ الاستجابة لأمرهما ، وأنه سبب لحلول المصائب على الإنسان ، وقد اتضح ذلك من موقف جريج في عدم استجابته لأمه ، حيث كان في صلاة النافلة ، وتردد بين إجابة أمه وإكمال صلاته فآثر إكمال صلاته ؛ فقدَّم المفضول على الفاضل ؛ فتعرض لما تعرض له من البلاء بدعوة أمه عليه .

٢-بيان خطر فتنة النساء وقد حذَّر الرسول- ﷺ - من فتنتهن فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَا تَرَكْتُ بَعْدِى فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»(١٢٥).

وقد عرف الصحابة أثر المرأة بين أن تكون كما أراد الله أُمًا صالحة تربي رجال الأمة على الخلق والدين وبين أن تكون وسيلة في يد الشيطان يغوي بها، ويفسد حتى تهدم المجتمع، وتضل شبابه، وهو ما نراه اليوم في مخططات أعداء الإسلام حيث يستعملون المرأة والشهوة كسلاح لشغل الأمة وتضييع شبابها ، ووأد روح الغيرة والتدين ، وهو مخطط قديم وإن تنوعت وسائل الفتنة والإغراء ، وانظر كيف كان مجرد النظر إلى وجوه الفاجرات والعاهرات يؤذي قلوب الصالحين ، ويعتبرونه نوعًا من البلاء والعقوبة ، فكان أقصى ما تدعو به المرأة على ولدها أن يرى وجوه المومسات كما فعلت أم جريج ، وقارنه بحال بعض الناس في هذا العصر الذي انفتحوا فيه على العالم عبر وسائل الاتصال الحديثة ، وعرضت الفاجرات صباح مساء عبر أجهزة التلفاز والقنوات الفضائية وشبكة الإنترنت ، فأصبحوا بمحض اختيارهم وطوع إرادتهم يتمتعون بالنظر الحرام ، لا إلى وجوه المومسات فقط ، بل إلى ما هو أعظم من ذلك !! ، ولا شك أن ذلك من العقوبات

---

١٢٥ صحيح مسلم / ج: ٨ ص : ٨٩ / كتاب الرقاق / باب الفقراء أكثر أهل الجنة / الحديث (٧١٢١).

العامة التي تستوجب من المسلم أن يكون أشد حذرًا على نفسه من الوقوع في فتنة النظر ، فضلًا عن ارتكاب الفاحشة -عياذًا بالله-) .

٣-من الدروس التي تقررها القصة الصراع الاجتماعي والنفسي بين أهل الصلاح، وأهل الفجور في كل زمان ومكان ، ومحاولة أهل الفجور تشويه صورة الصالحين، وتلطيخ سمعتهم ، واستخدام أي وسيلة لإسقاطهم من أعين الناس وزعزعة الثقة فيهم ، وبالتالي الحيلولة دون وصول صوتهم ورسالتهم إلى الآخرين .

فهؤلاء الساقطون في أوحال الرذيلة لا يطيقون حياة الطهر والعفاف ولا يهنأ لهم بال ، ولا يطيب لهم عيش إلا بأن يشاركهم الآخرون في غيهم وفسادهم ، بل ويستنكفون أن يكون في عباد الله من يستعلي على الشهوات ومتع الحياة الزائلة، كما قال عثمان ﷺ : " ودت الزانية أن النساء كلهن زنين "([١٢٦]) .

٤-من الدروس المستفادة من القصة خطر فقدان الثقة في القدوة والمثل الأعلى،فقد صُدم أهل القرية في جريج فعاملوه بهذه الغلظة والقسوة حين بلغتهم الفرية ، حتى هدموا صومعته، وأهانوه، وضربوه ، الأمر الذي يوجب على كل من تصدَّى للناس في تعليم أو إفتاء أو دعوة أن يكون محلاً لهذه الثقة ، وعلى قدر المسؤولية ، فالخطأ منه ليس كالخطأ من غيره ، والناس يستنكرون منه ما لا يستنكرون من غيره ، لأنه محط أنظارهم ، ومهوى أفئدتهم .

ومن الملاحظ في عصرنا هذا تركيز أعداء الإسلام على هدم أعلام الأمة من المعلمين والمربين والدعاة ؛ فلم يتركوا عالمًا يلتف الناس حوله إلا وحاولوا

---

١٢٦ معالم السنن (شرح سنن أبي داود) لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي البستي (٢٨٨ هـ) ج: ٤ ص: ٨٠/ الناشر : المطبعة العلمية – حلب / الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م .

تشويه صورته، وفض الناس عنه حتى لا يجد الشباب قدوة ولا مثلًا أعلى إلا ما يصنعه أهل الفساد من النماذج الضالة التي تقود الأمة إلى الفواحش والفجور.

٥-كما تقرر القصة خطر التسرع في تصديق كل ما ينقل من أخبار تتناول رموز العلم والعبادة وعامة الناس فيجب التثبت من الأخبار كما أمر الله – تعالى – : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (الحجرات ٦) فقد تسرع أهل القرية فصدقوا بغيًا وكذبوا العابد التقي .

٦-من الدروس التي تقررها القصة قيمة الصلة بالله ، وضرورة اللجوء إليه في الشدة واستمراره زمن الرخاء فقد أنجى الله جريجاً وبرأه من التهمة بسبب صلاحه وتقواه وفيها بيان حال الصالحين والأولياء من عباد الله الذين لا تضطرب أفئدتهم عند المحن ، ولا تطيش عقولهم عند الفتن ، بل يلجؤون إلى من بيده مقاليد الأمور ، كما لجأ جريج إلى ربه وفزع إلى صلاته ، وكذلك كان نبينا -ﷺ- إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

٧- يظهر خلال القصة أن الابتلاء فيه خير للعبد في دنياه وأخراه ، إذا صبر وأحسن واتقى الله في حال الشدة والرخاء فجريج كان بعد البلاء أفضل عند الله وعند الناس منه قبل الابتلاء .

وبقية الحديث في قصة كلام الرضيع مع أمه تقرر عدم الحكم بالظاهر، فقد تكون المظاهر خادعة، فقد رأت الأم رجلًا حسن الهيئة؛ فدعت ربها أن يكون ولدها مثله؛ فرد الرضيع هذا الاعتقاد، واعترض على هذه الدعوة ليقرر خطأ أمه وسوء حال هذا الرجل عند الله- تعالى-.

وفي النموذج الثاني رأت المرأة حال الفتاة التي اتهمت بالزنى والسرقة، وهي تجأر بأنها بريئة؛ فدعت الله أن لا يكون ابنها مثل هذه الفتاة، فنطق الرضيع

ليكشف خطأ أمه، وحسن حال الفتاة عند الله ، ويؤكد الدرس الأول بعدم الحكم على الظاهر .

ومن الجدير بالذكر أن الرسول – ﷺ –كان يعرض موضوع الدرس بأكثر من طريقة، ويستخدم أكثر من وسيلة تعليمية في تعليم صحابته بما يتفق، وحالتهم النفسية، والذهنية، وما يتوافق مع طبائعهم، فهذا المعنى الذي تقرره هذه القصة قرره بوسيلة أخرى مختلفة في حديث آخر ورد عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ قَالَ مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَقَالَ لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ قَالَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا ؟ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا)[١٢٧].ويأتي تحليل الحديث في المبحث التالي .

ومن الوسائل التعليمية التي كان يستخدمها الرسول – ﷺ–تكرار بعض القصص لتأكيد الدروس المستفادة منها، وتحقيق ذيوعها حتى تتم الفائدة ببلوغ ما تضمنته من دروس تربوية وتعليمية إلى أفراد الأمة كما ورد في قصة الكفل، والتي أكد ابن عمر –ﷺ– أنه سمعها من الرسول–ﷺ– أكثر من سبع مرات فقد ورد عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ –ﷺ–حَدِيثًا لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلاَّ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ حَتَّى عَدَّ سَبْعًا ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ : كَانَ الْكِفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ يَتَوَرَّعُ عَنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ يَطَأَهَا ، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنِ امْرَأَتِهِ أَرْعَدَتْ فَبَكَتْ ، فَقَالَ

(١٢٧) صحيح البخاري / جـ : ٥ – ص ٢٣٣٩ / كتاب الاستئذان / باب الموعظة ساعة بعد ساعة / حديث: ٦٠٨٢.

: مَا يُبْكِيكِ أُكْرِهْتِ ؟ قَالَتْ : لاَ ، وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ وَإِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ ، قَالَ : فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَلَمْ تَفْعَلِيهِ قَطُّ قَالَ : ثُمَّ نَزَلَ فَقَالَ : اذْهَبِي وَالدَّنَانِيرُ لَكِ . قَالَ : ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ لاَ يَعْصِي الْكِفْلُ رَبَّهُ أَبَدًا ، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ وَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ : قَدْ غُفِرَ لِلْكِفْلِ)[١٢٨] .

وتكرار ذكر القصة بهذا العدد يوحي بأهمية ما تضمَّنته من دروس وعبر تعظم حاجة الناس إليها، وهذه الدروس تتقرر بأمثلة حية كانت قائمة يومًا ما خلال القصة، وهو ما يساعد على سرعة استيعابها، ويسهم في ذيوعها، وانتشارها إضافة إلى تحويلها العملية التعليمية إلى أمر ممتع يطلبه المتعلمون، ويرغبون فيه على عكس غيرها من الوسائل التقليدية التي تسبب الملل ، ويتفلت خلالها المتعلمون بخيالهم، فيقبعون في مقاعدهم أجسادًا بلا عقول، أو يتركونها بالكلية .

(١٢٨) المستدرك على الصحيحين (لأبي عبدالله الحاكم(٣٢١ هـ – ٤٠٥ هـ) ج: ٤ ص: ٢٥٤/ باب ذكر أيوب عليه السلام الحديث (٧٦٥١) الطبعة : الأولى ، ١٤٢٧ ه .

المبحث السابع
استخدام الاستفهام للتعليم والتوضيح .

الاستفهام من الوسائل التي استخدمها الرسول -ﷺ- في العملية التعليمية، وحقق بها أعظم النتائج لتشويق المتعلمين ، وتحبيبهم فيها ،كما استخدمه للتنبيه قبلها، وللمحافظة على درجة اليقظة عندما يطول الدرس كما استخدمه لتحريك قضايا عقدية، وتقرير مسائل شرعية ، وأخلاقية في براعة حققت أعلى النتائج .

والاستفهام من طرق الأداء المميزة التي تتسع لمختلف الدلالات، وتعكس كثيرًا من المشاعر، وتحقق كثيرًا من الأغراض تتآلف، ولا تتنافر تتميز فيها دقائق المعاني لاستشفاف ما تمتلئ به القلوب من شحنات شعورية تحمل في طواياها مشاعر دافقة وأغراض فائقة يفيض بها القلب الأكرم للمعلم الأعظم في البيان النبوي .

والبحث في الاستفهام الذي ورد في إطار تعليم الرسول -ﷺ- لأصحابه له خاصية وجدانية شعورية تفيض بها العاطفة في أسمي لحظات ارتقائها ترغيبا بما عند الله من رضوان ونعيم لم يدر بخلد، ولم يخطر على بال ؛ أو تحذيرًا من هول لم يخطر بخلد،ولذلك نجد الاستفهام في الحديث النبوي يحمل شحنات وجدانية هي مزيج مما استشعره بعقله، وقلبه، وبما رأي من آيات ربه، وهذا الاستشعار، وهذه الرؤيا جعلت فؤاده مثقلاً بهم أمته دائم الحزن كثير الفكر مطرقًا وجلًا مجتهدًا في التعليم والتربية ، والوعظ والتحذير ؛ ولذلك خرج استفهامه في حيًا نابضًا يهز الوجدان ويوقظ الأذهان.

ومن استخدام الاستفهام كوسيلة تعليمية وتربوية ما ورد عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ قَالَ مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ-فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ

شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ قَالَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا ؟ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا)[١٢٩].

سؤال الرسول -ﷺ- للرجل (ما رأيك في هذا ؟) تمهيد وإرصاد لتقرير معنى من الأهمية بمكان، وهو عدم الانخداع بالمظاهر، وأن التقوى هي الأساس، وقد اختار النموذج بعناية ثم سأل الرجل عنه، وسمع إجابته ولم يعلق عليه حتى أتم أركان المقابلة بالنموذج الثاني وأعاد السؤال نفسه على الرجل نفسه، ثم قرر الحقيقة التي أرصد لها:(هذا خير من ملء الأرض من هذا)، وقول الراوي :(فسكت رسول الله...) سكوته بين الاستفهامين من عبقرية المعلم الأعظم ؛ لأنه تهيئة للمعنى باختيار الوقت المناسب والمعطيات المناسبة التي تعين على تقرير المعنى، وتثبيته حتى يتركه في أتم حالات الوضوح بالمقارنة التي عقدها بين نموذجين من واقع الحياة وهذا مما يؤكد أن كل حركة وسكنة في البيان النبوي لها دلالتها.

كما استخدم النبي -ﷺ-الاستفهام لتصحيح المفاهيم بعد أن يحرك المفهوم الخاطئ من قلوب المتعلمين ويخرجه ، ثم يضع المفهوم وضعًا جديدًا صحيحًا كما جاء به الإسلام، وهو أشبه ما يكون بعملية (الإحلال والتجديد)

من ذلك ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ :(أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟) قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. ، فَقَالَ (إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ

(١٢٩) صحيح البخاري / جـ : ٥ - ص ٢٣٣٩ / كتاب الاستئذان / باب الموعظة ساعة بعد ساعة / حديث: ٦٠٨٢.

فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)[١٣٠] .

الحديث يصحح مفهومًا من المفاهيم التي أخطأ الناس فهمها، أو غيرها الإسلام ، فيثير سؤالا يحرك به ذلك المفهوم الخاطئ من قلوب وعقول الصحابة؛ ليطرحوه ، ويعيد وضعه وضعًا صحيحًا.

وهذا المفهوم هو مفهوم (المفلس) والذي رسخ في أذهان القوم بأنه المعدم الذي لا يملك شيئًا، ولكن الرسول-ﷺ-يقرر أن المفلس الحقيقي هو مفلس الحسنات المخدوع بكثرة عمله من صلاة وزكاة وصيام وغيرها من أعمال البر، ولكنه جاء يوم القيامة، وقد ظلم، وتعدى، وأكل أموال الناس، واغتابهم ، وعملة الآخرة ليست الدرهم أو الدينار – الذي لا يملكه مفلس الدنيا ، ولكنها – الحسنات والسيئات التي لا يملكها مفلس الآخرة، فيعطى كل ذي حق حقه من حصيلة حسناته حتى إذا فنيت حسناته حمل من أوزارهم ثم طرح في النار.

وهذا الاستفهام تعليم، وتصحيح لمعنى الإفلاس ،وتنبيه لكل من بلغه الحديث إلى كثرة العمل للحظة السداد فما ثم إنسان لم يظلم إنساناً بقصد، أو بدونه ، وكل إنسان يوم القيامة في أمس الحاجة إلى حسنة تأتيه من أي مصدر ، أو إلى شقي يحمل عنه سيئة.

ومن استخدام الاستفهام في تصحيح المفاهيم ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ-:(قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : (ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ:(إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ)[١٣١] .

---

(١٣٠)صحيح مسلم كتاب (البر والصلة والادب) ٥٩ جـ ٤ صـ ١٩٩٧ .وسنن الترمذي كتاب: (صفة القيامة والرقائق والورع)حديث:(٢٤١٨).
(١٣١)صحيح مسلم جـ ٤ صـ ٢٠٠١ كتاب (البر والصلة والادب) (٧٠).

ومن الاستفهام الذي جاء لتصحيح المفاهيم ما جاء عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-:(مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ قَالَ :(إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ قَالُوا فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟قَالَ :(مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ قَالَ ابْنُ مِقْسَمٍ أَشْهَدُ عَلَى أَبِيكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ] رواه ابن ماجه(١٣٢) .

وقد استخدم النبي-ﷺ- هذا النوع من الاستفهام لتصحيح الاخطاء ، وتوضيح المفاهيم ، والتعريف بالمصطلحات الشرعية الجديدة بعد قياس معلومة المتعلم تجاه الخبر ليبني على فهمه، ويتم ما ينقصه عن طريق تحريك المصطلحات الخاطئة وإحلال المصطلحات الصحيحة ، وهذا النوع من الاستفهام يخاطب العقل بعد قسر الانتباه.

كما استخدام الاستفهام بعبقرية كوسيلة لتوجيه فكر المتعلمين بصرفهم من فكرة إلى فكرة ، ومن معنى إلى معنى آخر هو أنفع وأولى لهم كما ورد عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَعَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُمَا أَنَّ النَّاسَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ:(هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ ؟ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟ قَالُوا لَا . قَالَ : فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ....](١٣٣)

فإذا تأملنا ردَّالنبي -ﷺ-رأينا براعة المعلم في صرف عقول المتعلمين عن قضية معينة، وتحويل طاقتهم الفكرية إلى قضية أخرى حيث نقلهم بأسلوب الاستفهام إلى التفكير فيما استفهم هو عنه دون التفكير فيما استفهموا هم عنه، وهو كيفية

---

(١٣٢)سنن ابن ماجة جـ ٢ صـ ٩٣٧ حديث (٢٨٠٤)

(١٣٣) صحيح البخاري ج: ١ص : ٢٠٤/ كتاب بدء الوحي / باب : باب فضل السجود / الحديث : (٨٠٦).

رؤية الله – عز وجل – لعدم قدرة العقول على إدراك هذه الحقيقة التي تفوق الإمكانات البشرية ؛ فصرفهم إلى التفكير فيما استفهم عنه في قوله : (قَالَ هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ ؟) وقبل أن يعودوا بفكرهم للنقطة التي استفهموا عنها أخذهم باستفهام آخر بعيدًا عما لا يمكن لعقولهم أن تدركه؛ فكرر السؤال عن مستفهم عنه آخر،وصورة أخرى في قوله : (فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟)ليجتاز بالمخاطبين نقطة لا يجب أن تعمل فيها عقولهم ،لأنها فوق ما خلقت .

من العبقرية النبوية في التعامل مع النفس البشرية

من براعة المعلم أنه يهيئ المناخ المناسب لبدء العملية التعليمية فإن النفس البشرية ليست متهيأة في كل وقت لتقبل العلوم والمعارف ، وللحالة النفسية أثر كبير في استقبال هذه المعلومة المقصودة من العملية التعليمية والتربوية فعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ إِلَى النَّبِيِّ -ﷺ- فَقَالَ إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: (هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: نَعَمْ ! قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا ؟ قَالَ: حُمْرٌ قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟ قَالَ إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا قَالَ: فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ ؟ قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ قَالَ :وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ) [١٣٤]

قوله "نزعه عرق" يقول الإمام النووي "والمراد هنا: (الأصل من النسب تشبيها بعرق الثمرة ،ومنه قولهم: فلان معرق في النسب والحسب وفي اللؤم والكرم ومعنى نزعه أشبهه واجتذبه إليه وأظهر لونه عليه، وأصل النزع الجذب فكأنه جذبه إليه لشبهه"[١٣٥] وعلى ذلك يكون في التعبير استعارة حيث استعار العرق

(١٣٤) صحيح مسلم / كتاب اللعان / حديث رقم ١٥٠٠، وصحيح البخاري / كتاب الطلاق / باب إذا عرض بنفي ولده / حديث رقم ٥٣٠٥.
(١٣٥) شرح النووي علي صحيح مسلم / جـ ٥ / صـ٣٩٢.

وهو في الأصل لعروق الشجر للأصل من النسب بجامع الامتداد في كل على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

يبيّن الرسول -ﷺ- في هذا الحديث بطريقة عملية كيفية تقويم خطأ القذف وعلاج نفس المرتاب الشاك سيء الظن لسبب من الأسباب حتى لا يهدم بيته، ويشرد أسرته بسوء الظن غير المبني على الواقع.

والحديث تجربة عملية يتعلم منها المعلمون، والدعاة ،والمصلحون فن سياسة النفوس ، ومعاملة المخطئين وتفهم طبيعتهم ،وأبعاد مشكلاتهم ثم تهدئة انفعالهم ،واستدراجهم إلى مضمون القضية بطريقة منطقية، وإيضاح موضع الخطأ، وتقرير المخطئ بخطئه ،وإقناعه بالصواب عن طريق أمثلة من بيئته المحيطة به مع احترام عقليته ،وجعله طرفًا في الحوار المنبئ بنوع الخطأ ،وبيانه ثم تقويمه ؛ لذلك نجد الرسول -ﷺ- بعد أن سمع المشكلة من الرجل ،وأحاط بأبعادها، وأدرك بفطنته طبيعته، وانفعاله، وشدة شكه وارتيابه لفتهعن المضمون المباشر لكلامه ،وعن سبب غضبه بغرض تهدئة انفعاله.وهو بذلك يهيئه نفسيًا لمناقشة الموضوع بهدوء، وتعقل بعيدًا عن الانفعالات التي تغلق نافذة الفكرة ،وتؤدي إلى الخطأ في الحكم، وذلك عن طريق أسلوب الاستفهام في قوله: (هل لك من إبل؟) استدراجًا ،وتنبيهًا ،ولفتًا إلى خطأ الفكرة وسوء الظن غير المبني على واقع.

(وسؤاله عن الإبل، لأن الحيوانات تجري طباع بعضها على مشاكلة بعض في اللون والخاتمة، ثم قد يندر منها الشيء العارض، فكذلك الآدمي يختلف بحسب نوادر الطباع ونوادر العروق)[١٣٦] ،وقول الأعرابي: (يا رسول الله: إن امرأتي ولدت غلاماً أسوداً) يوحي بالريبة والتردد والشك والحيرة تجد ذلك في نداء الأعرابي الرسول بلقبه وبثه شكواه ، ثم إن هذا القول فيه تعريض بالقذف ووجه

(١٣٦) ينظر: عمدة القاري / جـ ١٦ / صـ١٢٣.

التعريض أنه قال غلاماً أسود أي وأنا أبيض فكيف يكون مني؟ والتعريض بالقذف ليس قذفاً على رأي الجمهور ،وعند المالكية يجب به الحد إذا كان مفهوماً.[١٣٧] ،وحالة الأعرابي ،وحيرته ،وتردده استدعت نقله عن الموقف والتفكير فيه، فجاءت استفهامة الرسول -ﷺ- شافية كافية تأخذ بيد الحائر من ظلمات الشك إلى درب اليقين.

ثم عاد وسأله (ما ألوانها؟) تمهيداً لعقله لتقبل ما سيلقى عليه من الحكم المتعلق بذلك؛ لأن تفكيره في إبله ؛وألوانها يخرجه من جو الشك الذي يمزق نفسه، ويستدرجه للوصول إلى حقيقة الأمر، وبعد إجابته بأنها (حمر) انتقل بالسؤال إلى مرحلة أخرى من علاج المشكلة بسؤاله مرة أخرى : (هل فيها من أورق؟)[١٣٨] تقريرًا، واستدراجًا، وتقريبًا شديدًا للحقيقة التي يبحث عنها الرجل.

ثم انتقل إلى السؤال الثالث في هذه السلسلة المتصلة طلبًا لإجابة هي بمثابة الحكم العقلي الموصل إلى نقطة التقاء البدء، والانتهاء، وهي في الوقت نفسه بمثابة وضع الحل المقنع في هذا الأمر، وفي قوله (فأنى أتاها ذلك؟) تنبيه إلى حقيقة الموضوع، ولفت إلى التصور الصحيح لأصل المسألة ،وبلوغ بالاستدراج بالاستفهام إلى غايته المنشودة ،أضف إلى ذلك كله ما تميَّز به هذا الأسلوب من قدرة على استدراج المخاطب نحو وضع الحل بنفسه، ومساعدته على الخلاص من تردده وشكه.

مع ما تميَّز به هذا الأسلوب التعليمي الدقيق من بناء المعاني بعضها على بعض في شكل أجزاء متصلة بنى فيها اللاحق على سابقه في إطار من التطور، والنمو

---

(١٣٧) ينظر: فتح الباري / جـ١٥ / صـ٨٧.

(١٣٨) الأورق : الذي خالط لونه لوناً آخر وقيل الذي فيه سواد وبياض. ينظر: أساس البلاغة / جـ ٢ / صـ ٥٠١.

الموصل لها إلى نقطة دلالية واحدة تتناهى لديها مجموعة المعاني السابقة.[١٣٩] ،وأسلوب الحديث في تقويم الخطأ يتسم بالهدوء، والحوار الهادف ،ويبنى على فهم المخاطب، وطبيعة مشكلته ،ويصله به ،ومعه للهدف المنشود.([١٤٠])

(١٣٩) ينظر : من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي / د. فتحية محمود فرج العقدة / صـ١٠١، ١٠٢.

١٤٠ينظر : بلاغة الرسول -ﷺ- في تقويم أخطاء الناس وإصلاح المجتمع (دراسة في الصحيحين) د : ناصر راضي الزهري .

المبحث الثامن
استخدام التشبيه والتمثيل للتعليم والتوضيح .

(للرسول -ﷺ-قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل ، وإرسال الحكمة ،وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسل من قبل، لأن المرسلين في مقام المعلمين ، وأنجع ما يكون التعليم إذا كان عن طريق التمثيل والمحاورة) ([١٤١])

والمتعلم إذا وافقت الصورة التشبيهية معارفه الحياتية ،وبيئته الطبيعية استطاع خلال الصورة أن يفهم مفردات المعنى الذي يقصده المعلم بالإضافة إلى أنها تعطي مدلول الصورة امتدادًا عبر الزمان ،والمكان(وقد نبه البلاغيون إلى أن صور التشبيه حين يستمدها الشاعر من عناصر كونية ،أو نفسية عامة يشترك في إدراكها والإحساس بها كافة المتذوقين كالتشبيه بالشمس ،والبدر ،والجبال ،والأنهار... ،وأحوال الخوف ،والأمن ،والغضب ،والرضا ،والقوة والضعف ،وما شابه ذلك مما هو شركة بين الناس ،والأمم يكون هذا الاستمداد من هذه العناصر أحفظ لبقائها ،وحيويتها ،وتأثيرها في أجيال الناس ،والأمم.

وهذا القدر من التشبيه هو الذي يربطنا بصور الشعراء الذين عاشوا في زمان غير زماننا ،وبيئات غير بيئاتنا ،وليس اختلاف العصر ،والبيئة، والأطوار الحضارية بحائل بيننا ،وبين التذوق ،والاستمتاع بهذه الصور ؛لأنها كانت أخلد من الزمان، والمكان حين استمدها الأديب من العناصر الإنسانية ،أو الكونية العامة)([١٤٢]). وقد استخدم المعلم الأعظم التشبيه كوسيلة تعليمية لتقريب المعاني الغيبية والأحكام الشرعية لجميع الناس على اختلاف عقولهم وأفهامهم .

---

١٤١ وحي الرسالة (فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع والقصص / أحمد حسن الزيات / المجلد الثالث / ص: ١١٥/ مطبعة الرسالة – مكتبة نهضة مصر بالفجالة / الطبعة السادسة سنة ١٩٦٣م / ومجلة الرسالة – مقال بعنوان :بلاغة الرسول -ﷺ- العدد ٧٦٠ لسنة ١٩٤٨م .

١٤٢ التصوير البياني(دراسة تحليلية لمسائل البيان) د: محمد محمد أبو موسى/ص:١٧٠/مكتبة وهبة /الطبعة الرابعة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م.

ولما كانت النصوص النبوية معناها من الله،ولفظها من الرسول -ﷺ-،وأكثرها معان غيبية لم يسبق لعقول المخاطبين إدراكها ؛ احتاجت في كثير من الأحيان إلى أسلوب ينتقل بعقولهم إلى مدى أوسع من مداها يكون لـه فضل اتصال بمعارفهم السابقة، وبيئتهم المحيطة بهم؛ لتتم العملية التعليمية ، والتربوية ، ويتحقق التواصل، وتُبلَّغ الرسالة .

فمن الصور التشبيهية التي استخدمها الرسول -ﷺ- لتعليم الناس فقه الفتن والتحذير منها ما ورد (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ:(بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا ،أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا ،وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) (١٤٣)

والحديث يشبِّه الفتن المقبلة في شدتها ،وظلمتها، وعدم تبين أمرها بقطع الليل المظلم، وبالعودة بالتشبيه إلى البيئة يتبين كثير من المعاني منها: أن التشبيه بالليل في بيئة العربي يوحي بالخوف ،والتخبط في الظلام، وعدم الاهتداء .

والخلاص من مخاوف الليل بالنسبة للعربي يكون في انتظار النور،وكذلك الحال في هذه الفتن يجب على الإنسان ألا يندفع فيها إلى المعاصي، والتشبيه بالقطع خاصة فيه إشارة إلى تتابع هذه الفتن كلما خرج الناس من فتنة دخلوا في غيرها مما ينذر بالبقاء على الضلال إلا من رحم الله ، وتقييد المشبه به (الليل)بـ (المظلم) إشارة إلى انعدام مصدر الهداية، وعموم الضلال يفهم ذلك من حال الليل، وانتشار ظلامه، وكلمة المظلم توحي بانعدام مصدر النور السماوي كالقمر،وغيره ، والأرضي كالنار، وغيرها.

---

١٤٣ صحيح مسلم / جـ ١ - ص: ١٠٩ / كتاب الإيمان / باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن/حديث :١١٨.

قال الطيبي:- رحمه الله – (كقطع الليل المظلم) يريد بذلك التباسها، وفظاعتها وشيوعها واستمرارها ([١٤٤]) .

قال المباركفوري :(والمعنى كقطع من الليل المظلم لفرط سوادها ،وظلمتها ،وعدم تبين الصلاح، والفساد فيها،وحاصل المعنى تعجلوا بالأعمال الصالحة قبل مجيء الفتن المظلمة من القتل، والنهب، والاختلاف بين المسلمين في أمر الدنيا، والدين؛ فإنكم لا تطيقون الأعمال على وجه الكمال فيها، والمراد من التشبيه بيان حال الفتن من حيث أنه بشيع فظيع ولا يعرف سببها ولا طريق الخلاص منها، فالمبادرة المسارعة بإدراك الشيء قبل فواته، أو بدفعه... قبل وقوعه([١٤٥]).

التشبيه بالنهر .

النهر، وإن لم يكن موجوداً في الجزيرة العربية إلا إنه لا يكاد يوجد عربي إلا وقد رأى النهر في رحلته إلى العراق ،أو الشام ،أو غيرهما ،أو رأى ما يشبه النهر في تجمعات الماء التي كانت تصنعها السيول في بعض السنين، وهي كافية لتقريب الصورة ،وتقرير المعنى ،وقد جاء التمثيل قياسًا لأمر خفي على أمر واضح ليتقرر في الذهن في ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ-: (يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ قَالُوا لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا قَالَ فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا)([١٤٦])

المتأمل لهذه الوسيلة التعليمية التي استخدمها النبي -ﷺ- في التعليم يجد أنها قوية التأثير عميقة الدلالة من عدة أوجه :منها أنه اختار مشبهًا به من البيئة

---

١٤٤ عون المعبود شرح سنن أبي داود / محمد شمس الحق العظيم آبادي أبوالطيب / جـ : ١١ ص : ٢٢٦/ دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية ، ١٤١٥هـ.

١٤٥ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي / للمباركفوري / جـ ٦ / ص : ٣٦٤/ الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت .

١٤٦ صحيح مسلم / جـ:١ /ص : ٤٦٢ كتاب : (المساجد ومواضع الصلاة) باب (المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع الدرجات)حديث(٢٨٣).

تقع عليه أكثر من حاسة ما بين البصر والذوق والسمع واللمس ، ومنه أنه أزال من صورة المشبه به كل الموانع البيئية التي تحول دون تحقيق الغرض كقلة الماء التي تمنع البعض من إتمام النظافة فجعل المشبه به نهرًا بالإضافة إلى ما توحي به كلمة (نهر) من إيحاءات تداعب عقل المخاطب كالعذوبة والصفاء وحسن المنظر .

وأنه عالج أيضا في المشبه به ما يلاقيه العربي في بيئته من عناء في إحضار الماء فجعل النهر بالباب في قوله (بباب أحدكم).كما أنه أضاف الباب الملتصق بالنهر للفظ (أحد)المضاف إلى ضمير المخاطبين حتى يعطي المعنى شمولًا يدخل الجميع فيه؛ لأن قرب المسكن من النهر لا يتوفر لكثير من الناس ، وغالبًا ما يختص بأهل الترف ، وقوله : (يغتسل فيه كل يوم خمسًا) إشارة إلى فراغ جوارحه عن الشواغل التي يمكن أن تمنع تمام النظافة.وتقييد الاغتسال بالظرف (يوم) يؤكد تتابع التنظيف، ويقرر معناه، وإضافته لـ(كل) إطراد للمعنى عبر الزمان .

أراد النبي -ﷺ-بهذه الوسيلة أن يعلِّم أصحابه، ويقرر في الأذهان كيفية محو الله لخطايا العبد بالصلوات الخمس؛ فجاء باستفهام التقرير (هل يبقي من درنه شيء؟...) لقياس صورة معنوية هي صورة تطهير الصلوات الخمس لما يقع بينهن من الخطايا على صورة معهودة حسية، وهي صورة إنسان يغتسل في نهر خمس مرات، ثم يلحق نتيجة الصلوات الخمس، وهي مغفرة الذنوب بنتيجة المغتسل خمس مرات إشارة إلى نقاء هذا المصلى من الخطايا كنقاء المغتسل. هذا ما أفاده التقرير بقياس صورة على صورة؛ لتوضيحها في الأذهان.

ثم ينقل الصورة مختلطة بمشاعره ليضعها بإزاء الصلوات التي يمحو الله بهن الخطايا ؛ وبذلك تبدو صورة ذلك المصلى من خلال صورة المغتسل وتبدو الصلوات وهي الطهارة البدنية قالبًا، وهي الطهارة المعنوية قلبًا من خلال صورة

نهر صاف عذب قريب وينتج من بين الصورتين صورة مؤمن نقي طاهر القلب ، والقالب كنهره الذي اغتسل فيه صافيًا نقيًا.

التشبيه بغثاء السيل:

ومن الصور البارعة التي استخدمها الرسول -ﷺ- في تعليم أصحابه كثيرًا من المعاني المتصلة بمستقبل الأمة ليحذروا منها ما روى عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ :رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا؛ فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)(١٤٧).

الصورة التي رسمها الرسول -ﷺ- بالتشبيه عناصرها مستوحاة من البيئة، وفيها تشبيهان يتداخلان في تقرير المعنى، ويكونان الصورة النهائية .

التشبيه الأول : في قوله -ﷺ- .(يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا) تشبيه تمثيلي لحال الأمة الإسلامية، وتربص أعدائها بها وترقبهم للحظة الانقضاض عليها عند ضعفها، وتفرقها، وغفلتها بحال تداعي الأكلة إلى قصعتها ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من كثرة الأعداء، وشدة تكالبهم مع انعدام من يردهم، وتشبيه الرسول -ﷺ- لحال الأمة، وهي في تفرق وضعف يتربص بها أعداؤها لافتراسها بحال تداعي الأكلة إلى قصعتها وهي صورة معروفة بالنسبة للعربي توحي بعدة دلالات منها:كثرة أعداء الأمة الإسلامية المتربصين بها المفهوم من لفظ (تداعى) أي يدعو بعضهم بعضًا، ومنها : اتفاق هؤلاء الأكلة

(١٤٧) سنن أبى داود / ت محمد عبد العزيز الخالدي / جـ :٣ / ص ١١٥ / كتاب الملاحم / حديث رقم ٤٢٩٧/- ط ١ – دار الكتب العلمية – بيروت – بدون . ومسند أحمد / باقي مسند الأنصار / حديث رقم ٢١٣٦٣ / شرحه ووضع فهارسه :محمود محمد شاكر – المكتب الإسلامي – ط ٢ – سنة ١٣٩٨هـ .

علىهدف محدد (القصعة)وهي إناء معروف يشبع العشرة(١٤٨)مما يدل على وفرة الخيرات وفي جانب المشبه يوحي باتفاق أعداء الأمة عليها يؤكد ذلك جمع كلمة (الأمم) الدالة على الاتحاد، ووحدة هدفهم (الأمة المسلمة) وأيضاً ما توحي به كلمة (تداعى) من حرص بعضهم على تنبيه بعض للقصعة .ومنها :اقتراب الخطر وتحْدِيقِه بهذه الأمة تجد ذلك في تعبيره بلفظ (يوشك) التي توحي باقتراب الخطر الذي يوجب الحذر أيضاً تعبيره بصيغة الجمع للفظة (الأمم) الأمر الذي يزيد الأمر خطورة ويوجب الحذر الشديد.

ومنها شدة الهجمة على الأمة وضراوتها تجد ذلك في تعبيره بلفظ (الأكلة) بصيغة الجمع من جهة وبمعناها؛ لأن الأكلة جمع مفرده أكول أو آكل، والأولى صيغة مبالغة على وزن (فَعُول) وتوحي بشدة النهم والثانية صفة مشبهة من الأكل توحي بكثرة الأكل وأنه صفة لازمة.

ومنها: الإشارة إلى غنى الأمة بالخيرات التي تثير لعاب الأكلة مع عدم توفر الحماية، وسوء الاستغلال لهذه الخيرات تجد ذلك في استخدام لفظة (القصعة) وهي إناء للطعام يقدم للآكلين وإضافة ضمير الجمع العائد إلى الأكلة إلى القصعة يشير إلى انفرادهم بها وسيطرتهم عليها.

أخيراً يفهم من تشبيه الرسول -ﷺ- لحال الأمة وتربص أعدائها مع غفلتها بتداعي الأكلة على قصتها، والتي يثيرها، ويحركها داعٍ غريزي فطري هو الجوع أن تربص الأمم غير المسلمة قائم في كل زمان، ومكان كلما سنحت فرصة من ضعف، وتفرق، وغفلة للأمة الإسلامية ،وكأن كراهية الأمم للمسلمين، وتربصهم بهم طبع فطروا عليه، وغريزة تدعوهم إلى إيذاء المسلمين .

واستخدام الفعل (يوشك) في صورته المضارعة تصوِّر أعداء الأمة

---

١٤٨ لسان العرب / جـ : ٩ ص : ١٨٦

المتربصين في صورة ذئاب تكاد أن تنقض على فريستها بعد تداعيها واجتماعها واستكمال أسلحتها لتمزيق جسد الأمة، وطبيعة الفعل (يوشك) الدال على المقاربة المؤذنة بدنو الخطر يجعل المخاطب في حذر، وترقب لأسباب الخطر وأبعاده.

التشبيه الثاني : في قول الرسول -ﷺ- (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل) وفيه تشبيهان: الأول :تشبيه المسلمين بالغثاء وهو تشبيه بليغ للمسلمين في كثرتهم، وقلة شأنهم بالغثاء، وهو ما يحمله السيل في طريقه مما خف وزنه، وطرح لانعدام فائدته، ووجه الشبه الكثرة مع انعدام المنفعة، ثم زاد الصورة تأكيداً، وتقريراً بالتشبيه الثاني: وهو قوله:(كغثاء السيل) حيث شبه الغثاء الذي شبه به حال المسلمين بغثاء السيل ووجه الشبه عدم الفائدة مع الكثرة ومجمل هذين التشبيهين مع إضافة الغثاء للسيل بالنظر للبيئة له عدة دلالات منها:كثرة المسلمين وتفرقهم المفهوم من حال الغثاء الذي يحمله السيل في الطبيعة .

ومنها : الخفة وانعدام الإرادة المفهومان من حال الغثاء الذي يحركه السيل كيف يشاء، ويقذفه في أي اتجاه دون أن يملك تصرفاً في حركته ،لأن مصدرها خارج عن إرادته، وكذا حال المسلمين في عصر الضعف والهوان في سيرهم خلف الأمم.

ومنها: الحقارة وانعدام الفائدة ،لأن السيل يجمع ما لا قيمة له من قاذورات الأرض ومما أهمل منها وطُرح.

ومنها : الاختلاف والتنوع وعدم النظام ،لأن جمع السيل للغثاء يصدر عن غير نسق، ويأخذ كل ما يقابله مما خف عليه حمله.

ومن التشبيهات المؤثرة التي استخدمها الرسول في التعليم ما جاء عَنْ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ:(الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ

وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)(١٤٩)

تشبيه الرسول -ﷺ- في قوله:(وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى...) تشبيه تمثيلي لحال من يدخل في الشبهات بحال الراعي الذي يرعى حول المكان المحظور بحيث أنه لا يأمن من الوقوع فيه، وهي صورة من واقع البيئة التي يلابسها كثير من المخاطبين بحيث إذا سمعوا هذا التمثيل خالجهم شعور مماثل لشعورهم حين يقتربون من حمى ملك يخشون بطشه، وبذلك تتحقق الرهبة من مواقعة الشبهات التي لا تلبس أن توقع صاحبها في الحرام،وبالرجوع بالتشبيه إلى البيئة العربية نجد أن العادة جرت لدى ملوكهم أن يكون لهم حمى (مساحة من الأرض يخصصونها لأنفسهم ترعى فيها إبلهم، ويمنعون غيرها ومن يتعد عليها يقع في العقاب)وتشبيه الرسول-ﷺ- لمن يقع في الشبهات بالراعي الذي يرعى حول الحمى، ويوشك أن يقع فيه يعطي عدة دلالات منها:التأكيد على مسئولية الراعي على ما استرعي لأنه المالك لزمامها المسئول عن تصريف أمرها وهي منقادة إليه، وهي في المشبه جوارحه التي يستطيع أن يصرفها في مرضاة الله، أو يرتع بها فيما حرم ، ومنها : الترهيب من الاقتراب من محارم الله والتحذير من عقابه يفهم ذلك من حال الراعي الذي يوشك أن يتعرض لعقوبة الملك الذي يوشك أن يستبيح حماه ، وفي التشبيه إشارة إلى طرق الحلال والترغيب فيها يفهم هذا المعنى من الإطلاق والتقييد في المرعى فالملك حماه محدود بالنسبة لبقية الأرض ويستطيع الراعي أن يجد له مكانا غيره- وإن بعد- فإن فيه السلامة وكذلك الحلال فمهما صعب أو بعد فهو الخير وفيه السلامة .

---

١٤٩ صحيح البخاري / جـ ١ ص : ٢٨/ كتاب الإيمان / باب فضل من استبرأ لعرضه ودينه / حديث : ٥٢ .

ومنها : الإشارة إلى خطر الشبهات، وأنها طريق إلى المحرمات ؛لأنها تُعلِّم الجرأة على مخالفة الله، وتُمنِّي النفس بالحرام بقربها منه يفهم ذلك من حال الرعي حول الحمى، وإبله التي لا تلبث أن يغريها طيب مرعى الملك بالرتع فيه، وكذلك نفس الإنسان البهيمية التي تميل إلى الشهوات.

ومن استخدام التشبيه التمثيلي في التعليم والتربية ،وتقريب المعاني ما ورد عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: (مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالنَّجَا النَّجَاءَ فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ، فَأَدْلَجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا ،وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ ،فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَاجْتَاحَهُمْ)([١٥٠]).

هذه الصورة التمثيلية من واقعبيئة المتعلمين وتوافق معارفهم وهو ما يجعل فهم المعاني أسرع ، وأيسر ومن الدلالات التي تشير إليه الصورة : اختيار الرجل للتشبيه به من واقع الحال لأن من عادتهم أن يرسلوا الرقباء والعيون من الرجال ولأنهم أقوى على الاحتمال وأسرع في التحذير وتنكيره لكلمة(رجل) للتعميم لتشمل كل من كانت هذه حاله وكذلك اختياره لكلمة(قوم) وهم الجماعة من الرجال لأنهم المعنيون بالدفاع عن القبيلة ، وقوله : (رأيت الجيش بعيني) يؤكد صدق الخبر ويرفع درجة الإحساس بالخطر وهو من عادتهم إذا أرادوا تأكيد خبر أن يقول المخبر رأيت بعيني ولم يخبرني أحد.

وقوله (إني أنا النذير العريان)(استعارة تمثيلية) من واقع البيئة لمن تجرد في أمر وصدق فيه وأصله أن الرجل إذا رأى الغارة قد فجأتهم، وأراد إنذار قومه تجرَّد من ثيابه، وأشار بها ليعلم أنه قد فجأهم أمر، ثم صار مثلا لكل أمر تُخاف مفاجأته ولكل أمر لا شبهة فيه ، قال الطيبي: شبه -ﷺ- نفسه بالرجل وإنذاره

---

١٥٠ صحيح البخاري /جـ : ٦ ص: ٢٦٥٤ / كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ حديث ٦٨٥٤.

بالعذاب القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح، وشبَّه من أطاعه من أمتـــه، ومن عصاه بمن كذَّب الرجل في إنذاره ومن صدَّقه ([١٥١])قـــال الإمـــام العينـــي (لضرب المثل شأن في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عـــن الحقـــائق فـــإن الأمثال تري المخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد، ولا يضرب مثل إلا قول فيه غرابة، فإن قلت ما المورد ومـــا المضـــرب؟ قلت :المورد الصورة التي ورد فيها ذلك القول، والمضرب هـــي الصـــورة التـــي شبهت بها، ثم اعلم أن المثل له مفهوم لغوي، وهو النظير ،ومفهوم عرفي، وهو القول السائر، ومعنى مجازي، وهو الحال الغريبة([١٥٢])

ومن ذلك ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –ﷺ– سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– مَنْ أَكْرَمُ النَّـــاسِ؟ قَـــالَ :أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا)([١٥٣]).

وباستخدام التشبيه في العملية التعليمية والنظر في تركيبه تتضح كثير من المعاني منها :تقرير اختلاف طباع الناس ،وصفاتهم الخُلقية، والنفسية يفهـــم هـــذا مـــن تفاوت المعادن، ومنها: الإشارة إلى تفاوت الناس في تقبلهم للإصـــلاح، فمـــنهم السهل ،ومنهم من يحتاج إلى صبر، ومنهم من لا يقبل كما هو حال معادن الأرض (المشبه به) فمنها ما يسهل استخراجه ومنها ما يصعب استخراجه ،ومنها مـــا يسهل تشكيله، ومنها ما يصعب تشكيله.

ومنها: الإشارة إلى تفاوت الناس في كرم الأصل ،وخسته يفهم ذلك مـــن تفـــاوت المعادن في نفاستها فمنها الغالي كالذهب، والفضة، ومنها الـــرخيص كالحديـــد،

---

١٥١ فتح الباري لابن حجر جـــ : ١١ ص : ٣١٧

١٥٢ ينظر عمدة القاري / جـــ: ٢ ص : ٢١.

١٥٣ صحيح البخاري / جزء ٣ – ص ١٢٨٨/ كتاب المناقب / باب : قوله تعـــالى : (...إن أكرمكم عند الله أتقاكم) حديث : ٣٣٠٤

والقصدير، ومنها : الإشارة إلى تفاوت الناس في قوة التحمل، والصبر على الأذى يفهم ذلك من تفاوت المعادن في صلابتها فالحديد يخالف النحاس كما يخالف الرصاص .

ومنها : الإشارة إلى أن معرفة أصول الناس تحتاج إلى بحث في أحوالهم، وتدقيق في منابتهم حتى لا ينخدع الإنسان بالظاهر ويحكم خلاله على صفات الشخص ،لأن كريم الخلال قد يعتريه في الظاهر ما يخفي كرم أصله من فقر أو خمول ذكر في الناس أو غيره كما يمكن لخسيس الأصل أن يعتريه في الظاهر ما يوهم بكرم الأصل، وهو على غير ذلك يفهم ذلك من حال المعادن في الأرض التي لا يعرف خصائصها إلا بعد استخراجها من باطنها والكشف عنها

قال بن حجر : وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها بل من كان شريفا في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس فإن أسلم استمر شرفه وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية، وأما قوله: (إذا فقهوا) ففيه إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين)([١٥٤]).

ومن الملاحظ في البيان النبوي أن الصورة تؤدي دورًا بالغ الأهمية في التعليم والتربية وتقرير المعاني للعامة والخاصة لما للصورة من خصائص في التوصيل لا تتوفر لكثير من الوسائل الأخرى ؛ لأنها ترتكز في العقول بحاسة البصر، وتستدعيها العبارة لتلقي بظلالها على المعنى بعد تقريره، وقد أحسن النبي -ﷺ- توظيفها بدقة بلغت بها قمة البلاغة حيث وصلت لمختلف الأفهام ، وعالجت مختلف الأوهام محتفظة بين هذا وذاك بجمال فني عليه وسم العبقري .

---

١٥٤ فتح الباري – ابن حجر جـ ٦ – ص: ٥٢٩ / الناشر : دار المعرفة – بيروت ، ١٣٧٩هـ .

هكذا نرى الرسول -ﷺ- يسخر معطيات البيئة البسيطة والمعقدة من حوله في العملية التعليمية والتربوية التي تحقق أهداف الرسالة بتبليغ ما أمر الله به .

المبحث التاسع
من الوسائل المساعدة في العملية التعليمية في السنة النبوية

إذا راجعنا وسائل التعليم والتربية الحديثة التي أثبتت نجاحها نجد أكثرها بقليل من التأمل طي الأساليب النبوية ، فلو نظرنا -مثلًا - في وسيلة الحوار عن طريق السؤال والجواب كوسيلة تعليمية ناجحة نجدها عند الرسول -ﷺ- والأصل فيها حديث جبريل - عليه السلام- وحواره التعليمي مع الرسول -ﷺ-فقد جاء (عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، عَنْ عُمَرَ ﷺ ، قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ -ﷺ-، فَجَاءَ رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ شَعَرِ الرَّأْسِ ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، قَالَ : فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ -ﷺ-، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَهُ إِلَى رُكْبَتِهِ ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :(يَا مُحَمَّدُ ، مَا الإِسْلاَمُ ؟ قَالَ : شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ ، وَحَجُّ الْبَيْتِ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، فَعَجِبْنَا مِنْهُ ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلاَئِكَتِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، فَعَجِبْنَا مِنْهُ ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، مَا الإِحْسَانُ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، قَالَ : فَمَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ، قَالَ : فَمَا أَمَارَتُهَا ؟ قَالَ : أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، قَالَ وَكِيعٌ : يَعْنِي تَلِدُ الْعَجَمُ الْعَرَبَ ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ ، يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنَاءِ ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : فَلَقِيَنِي النَّبِيُّ -ﷺ-بَعْدَ ثَلاَثٍ ، فَقَالَ

: أَتَدْرِي مَنِ الرَّجُلُ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : ذَاكَ جِبْرِيلُ ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ مَعَالِمَ دِينِكُمْ).(١٥٥)

ولا يخفى ما تضمنه الحديث من وسائل تعليمية ناجعة تحقق التفاعل عن طريق السؤال، والجواب، والتشويق، والتنبيه التي تضمن يقظة المتعلمين وتمام انتباههم حتى أكمل العملية التعليمية كما ضمَّ وسائل تضمن ثبات المعنى كالخبر الطريف، ومتابعة المتعلم، وإظهار العناية به وغيره .

والأحاديث النبوية التي تضمنت وسائل تربوية وتعليمية فاعلة لا تحصى كثرة بما يؤكد كمال المنهج النبوي، وشموله لكل ما يلزم العلمية التعليمية من وسائل لتحقيق أهدافها، وقد سبق في ذلك النظريات الغربية .

كما حفلت كتب السنة النبوية بكثير من الوسائل المساعدة في العملية التعليمية التي تهيء المتعلم لاستقبال ما يلقى إليه من معارف، وتحفزه للاجتهاد والجد وبذل كل طاقاته فيها حتى يصبح مميزًا مبرِّزًا، وقد خرَّجت هذه الوسائل الجيل الذي علَّم العالم معارف أخروية ودنيوية أضاءت مشارق الأرض ومغاربها، ومن الوسائل المساعدة التي استخدمها الرسول-ﷺ- في التعليم والتربية :

أولًا : الحفاوة بالمتعلم، وإظهار محبته، والعناية به.

من أهم الوسائل المساعدة في العملية التعليمية العناية الشديدة بالمتعلم، وإظهار الحفاوة به، والإكرام له وإظهار المحبة التي تشعره بالخصوصية، والمكانة لدى المعلم، الأمر الذي يجعله أحرص على كل حرف يبلغ سمعه ، والأمثلة على ذلك كثيرة في السنة النبوية والأمر فيه بيِّن .فقد روى حُمَيْدُ بْنُ هِلَالٍ قَالَ قَالَ أَبُو رِفَاعَةَ انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ-ﷺ- وَهُوَ يَخْطُبُ قَالَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ غَرِيبٌ

---

١٥٥ سنن ابن ماجة (ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني) (المتوفى : ٢٧٣هـ) ج : ١ ص: ٤٣ / الحديث رقم (٦٣) كتب حواشيه : محمود خليل/ الناشر : مكتبة أبي المعاطي .

جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ لاَ يَدْرِى مَا دِينُهُ - قَالَ - فَأَقْبَلَ عَلَىَّ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَىَّ فَأُتِىَ بِكُرْسِىٍّ حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيدًا - قَالَ - فَقَعَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ فَأَتَمَّ آخِرَهَا.([١٥٦])

تأمل مدى عناية الرسول -ﷺ-بطالب العلم حتى أنه ترك لأجله خطبة الجمعة ، ولها ما لها من قدسية في نفوس المسلمين ، فتخيل شعور المتعلم، وهو يرى رسول الله -ﷺ-يترك الجموع، ويتوجه نحوه ، ويجلس إليه حتى يجيبه عما سأل ، وتعبير الصحابي يصور هذه الحفاوة بالأفعال الدالة على التحقق بسبق الوقوع في الزمن حيث جاءت في صورة الماضي (أقبل – ترك – انتهى – أتى – قعد – جعل) ولم يعبر بصيغة المضارع إلا حين أراد استحضار الحدث الأساسي الذي حرك الرسول -ﷺ-نحوه وهو الفعل (يعلمني).

كما صورت أدوات الربط في عبارة الصحابي تلك الحفاوة حيث استخدم الفاء الدالة على تسارع الأحداث في الترحيب به في ربط الأفعال (فأقبل – فأتى – فقعد) واستخدم (ثم) مرة واحدة للدلالة على الفترة الزمنية التي قضاها بين يدي الرسول يعلمه ، فهل تراه ينسى حرفًا مما تعلمه بعد تلك الحفاوة ؟ وهل سيترك توجيهًا سمعه من معلمه ؟

كما كان الرسول -ﷺ-يتلقى طالب العلم بالبشارة التي تشرح صدره، وتزيده إقبالًا على طلب العلم ، وحرصًا عليه، فقد جاء عَنْ عَبْدِاللَّهِ بن مَسْعُودٍ-رَضِيَ اللَّهُ- تَعَالَى- عَنْهُ ،قَالَ: حَدَّثَ صَفْوَانُ بن عَسَّالٍ الْمُرَادِيُّ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ-ﷺ- وَهُوَ مُتَّكِئٌ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى بُرْدٍ لَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ،

---

١٥٦ صحيح مسلم / ج:٣ / ص: ١٥ / كتاب الصلاة / باب حديث التعليم في الخطبة / الحديث (٢٠٦٢)الناشر -دارالجيل-بيروت .

فَقَالَ :"مَرْحَبًا بطالب الْعِلْمِ، طَالِبُ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلاَئِكَةُ وَتُظِلُّه بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمّ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِم لِمَا يَطْلُبُ، فَمَا جِئْت تَطْلُبُ؟".(١٥٧)

فقد تلقاه بعبارة الترحيب مرتبطة بصفة العلم مدحًا له: (مَرْحَبًا بطالبِ الْعِلْمِ)، ثم أتبعها بالبشارة التي تشرح صدره؛ فالنفوس حال سرورها تكون أسرع استجابة، وأكثر استيعابًا، وأقوى تركيزًا، وكلها محفزات تخدم العملية التعليمية .

ثم أتبعها بذكر الخبر الطريف الذي يدل على حفاوة أطهر الكائنات بطالب العلم، وفي فعلها دليل على حفاوة الله –تعالى– به فقد كرم الله –تعالى– آدم بأن أسجد له ملائكته وجعل العلم عنوان فضله عليهم قال –تعالى–: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)(البقرة الآيات ٣١: ٣٣)

ومع ما تصنعه هذه الحفاوة في نفس المتعلم من تهيئة ، وتحفيز فإنها تشعره – أيضًا– بأهمية ما هو بصدده، وهو أمر من الأهمية بمكان، فبقدر شعور الإنسان بقيمة ما هو فيه، فإنه يبذل فيه جهده ووقته وماله؛ لأن العملية التعليمية مشتركة بين المعلم، والمتعلم، وأي فتور أو تقصير من أحد الطرفين يؤثر سلبًا عليها، فلابد من تهيئة المتعلم نفسيًا، وتحفيزه للتعلم .

والعبقرية النبوية قدمت طرقًا كثيرة لتهيئة المتعلم ، وتوجيه قواه الفاعلة ، وحواسه المتصرفة لما يخدم هدفها، ويحقق غايتها لتفجير الطاقة الإنسانية المميزة للبشرية في سعيها للكمال المنشود بتحقيق العبودية لله–تعالى– التي

١٥٧ المعجم الكبير للطبراني / ج:٧ / ص: ٤٩ / الحديث (٧١٩٦) .

تهذّب النفس البشرية، وترقى بها إلى درجة الملائكية مع تحقيق السعادة الدنيوية.

وقد وردت في السنة النبوية طرق عملت على تفريغ وجدان المتعلم، وقطعه عن شواغله، وصرف جوارحه تجاه المُعلم، كالضرب على المنكب، وتقريب المتعلم، والإقبال عليه، أو البداية بعبارة تحمل شحنة وجدانية كما ورد عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، -رضي الله عنه- ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ-أَخَذَ بِيَدِي يَوْمًا فَقَالَ : (يَا مُعَاذُ ، وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّكَ ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ : بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ، وَأَنَا وَاللَّهِ أُحِبُّكَ ، فَقَالَ : أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ...).([١٥٨])

فقد أخذ النبي -ﷺ- بيد معاذ وهي حركة -على بساطتها- عميقة الأثر في وجدان المتعلم تشعره بالسعادة والرضا والحظوة لدى المعلِّم ، ثم عقَّبها بالنداء الذي يوحي بالتكريم، فقد ناداه -رغم قربه- بأداة النداء (يا) التي ينادى بها البعيد إشارة إلى علو منزلته عنده، ثم صدّر جملة المحبة بالقسم، وهي جملة تعدل الدنيا وما فيها : (وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّكَ) ثم تركه لحظات ينعم بهذا الشعور، ويعطيه فرصة للتجاوب الذي يدخل به إلى المعنى الذي يريد تقريره ، ثم التعبير بلفظ الوصية الذي يشعر بأهمية ما بعده، ثم تكرار ندائه باسمه وله ما له في نفسه !!.

ثانياً: الرفق والأناة .

من الوسائل المساعدة شديدة التأثير في العملية التعليمية استعمال الرفق والأناة في التعامل مع المتعلم حتى لا يتفلت في مرحلة من مراحلها.

---

١٥٨ مسند البزار (البحر الزخار) لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار – المتوفى : ٢٩٢ هـ ج ٧ / ١٠٤/ المحقق : محفوظ الرحمن زين الله ،وآخرون / الناشر : مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة / الطبعة : الأولى ١٩٨٨م .

وقد كانت صفة الرفق في تعامل الرسول -ﷺ-منهجًا في تعامله مع الناس جميعًا حتى مع الكافرين، وقد عامل المتعلمين معاملة الرفيق الشفيق الذي يحنو على تلامذته حتى على من أخطأ منهم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-« إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمُ الْغَائِطَ فَلاَ يَسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ وَلاَ يَسْتَدْبِرْهَا وَلاَ يَسْتَطِبْ بِيَمِينِهِ » (١٥٩).

وقد بدأ حديثه بأسلوب القصر بـ(إنما) ليخصص نفسه بهذه العلاقة الأبوية والوظيفة السامية.. علاقة الوالد المعلم التي تحببهم فيه، وتقربهم منه، وتمهد قلوبهم لاستقبال ما يريد ترسيخه في نفوسهم، كما أنه قدَّم علاقة الأبوة على التعليم ليجعل منها طريقًا إلى قلوبهم يتألفهم به حتى يملك وجدانهم، ويقبلون عليه بكل حواسهم، وتلك الطريقة من عبقرية التعامل مع النفوس البشرية .

وتأمل أثر الأسلوب النبوي العالي بالرفق، والأناة في التعليم على نفس المتعلم، وفي وجدانه فيما روى عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ. فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ:وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ-- ﷺفَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ فَوَاللَّهِ مَاكَهَرَنِي وَلاَضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي قَالَ « إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَيَصْلُحُ فِيهَا شَيءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ... »(١٦٠).

١٥٩سنن أبي داود ــ محقق وبتعليق الألباني-جـ: ١ / صـ : ٧/ كتاب الطهارة / باب كراهية استقبال القبلة / الحديث رقم : (٨) دارالكتاب العربي ــ بيروت .

١٦٠ صحيح مسلم ــ جـ : ٢ / ص: ٧٠/ كتاب المساجد / باب تحريم الكلام في الصلاة الحديث رقم : (١٢٢٧)/ طبعة دار الجيل بيروت .

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ الْمَسْجِدَ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-:(لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا ، قَالَ : فَمَا لَبِثَ أَنْ بَالَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ ، فَكَأَنَّهُمْ عَجِلُوا عَلَيْهِ ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ -ﷺ-، ثُمَّ أَمَرَ بِذَنُوبٍ مِنْ مَاءٍ ، أَوْ سَجْلٍ مِنْ مَاءٍ ، فَأُهْرِيقَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- : عَلِّمُوا ، وَيَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا) (١٦١).

وقد مدح الله – عز، وجل – هذه الصفة في نبيه-ﷺ- قال – تعالى-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران: ١٥٩).

وقد حثَّ النبي -ﷺ-على الرفق في الأمور كلها -فعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: قال رسول الله -ﷺ-: «يا عائشة! إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرفقَ، ويُعْطي على الرفق ما لا يُعطي على العُنْفِ، وما لا يُعطي على ما سِواهُ»(٧).

والعملية التعليمية أحوج ما تكون إلى الرفق والأناة لتحقيق مقاصدها، والترويح عن المتعلمين، وتألفهم على طلب العلم، وروي عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هِلالٍ قَالَ سَمِعْتُ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-« مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ حُرِمَ الْخَيْرَ أَوْ مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ ». (١٦٢).

ومن الرفق بالمتعلم رعاية الجانب النفسي لديه في أثناء العملية التعليمية فقد جاء عن أَبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري – ﷺ – : أَنَّ رجلاً قَالَ :يَا رَسُول الله ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ . فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-:((تَعْبُدُ اللهَ، وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيئاً، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ ، وتُؤتِي الزَّكَاةَ ، وتَصِلُ الرَّحِمَ))

---

١٦١ مسند الشافعي (محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي) [١٥٠ – ٢٠٤] صـــ : ٢٢ / الحديث : (٧٤) الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت.

١٦٢ صحيح مسلم ــ جـ : ٨ / ص: ٢٢/ كتاب البر والصلة والآداب / باب فضل الرفق / الحديث (٧٦٧٥).

فقد استخدام الأسلوب الخبري في توجيه المتعلم في قوله : -ﷺ- (تعبد ، وتقيم، وتؤتي وتصل) ؛ ليوافق أسلوبه قول الأعرابي (أخبرني) فجاء أمره في صورة الخبر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رعاية لنفسية الأعرابي الذي يأنف أن يأمر، أو ينهى، وهو الذي يحيا في صحرائه بلا قيود ،أو حدود أو أوامر، فأسلوب النبي -ﷺ- بذلك راعي نفسية الأعرابي وشاكل كلامه ، والعدول عن الأسلوب الإنشائي (اعبد) إلى الخبري في قوله "تعبد الله" يحقق فائدتين : إحداهما : أن المأمور كأنه سارع إلى الامتثال ، وهو يخبر عنه إظهارًا للحرص على وقوعه. ثانيهما : أن لا ينسب إلى عدم الامتثال لأمره إن قصَّر المأمور ، أو لئلا يكون المأمور مسخوطًا عليه إن لم يمتثل ' فتأمل حرص المعلم على المتعلم إلى أي مدى يصل شفقة عليه ورعاية لطبيعته النفسية .

واتباعه النهي في قوله (لا تشرك) للأمر في قوله (تعبد) تأكيدًا له لإخلاص العبودية لله من الشرك العالق في نفوس القوم من آثار الجاهلية.

والحديث الشريف بجملته نموذج يقتدي به في التعليم ، والتربية ، ومخاطبة الناس بأساليبهم ، ورعاية الجانب النفسي عندهم . مع الحرص على عموم المنفعة ، وبلوغ الموعظة .

وفي السنة النبوية وسائل مساعدة ثبت بالتجربة أثرها القوي، وقيمتها في العملية التربوية، والتعليمية بينما عارضتها نظريات تربوية غربية، ومن المؤسف أن بعض من تعلمعلى أيديهم من المسلمين ردد هذه النظريات، وطبَّقها في مدارس المسلمين دون النظر إلى أبعاد المسألة من الناحية الشرعية، والتربوية وتأثيرها على العملية التعليمية، ومن هذه الوسائل الضرب غير المبرح .

ثالثًا : الضرب وسيلة مساعدة من وسائل التربية والتعليم .

تتابعت نظريات علمية حديثة في ذم الضرب على إطلاقه كوسيلة للتعليم والتربية بل وُضِعت قوانين في بعض البلدان تجرِّم الضرب مهما كان فعل المضروب لاسيما الطفل .

وهذه الوسيلة حسنة بين سيئتين، فمن ذمها على إطلاقها مخطئ، ومن بالغ فيها حتى تخرج عن غايتها مخطئ؛ لأنه أساء استخدامها حتى خرجت عن حد التأديب، والردع للمساعدة في العملية التعليمية إلى حد الإيذاء والتعذيب .

والمقصود باستخدام الضرب في العملية التعليمية التلويح به كعقوبة أكثر من تطبيقه تطبيقًا فعليًا إلا في أضيق الحدود ضربًا لا يكسر عظمًا، أو يخدش جلدًا، أو يسبب مهانة كالضرب على الوجه، أو القفا .

ونحن نرى المدارس التي سارت خلف النظريات الغربية، ومنعت الضرب مطلقًا، قد تأثرت فيها عملية التربية، والتعليم بشكل كبير ، وخرج كثير من التلاميذ عن حدود الأدب، والأخلاق، وأهملوا واجباتهم، وأصبحت العملية التعليمية في غاية العسر على القائمين عليها من المعلمين حيث إنهم لا يملكون صلاحية لدفع المتعلمين – لاسيما الصغار – إلى طريق العلم والتربية . فإن حققوا تقدمًا في الناحية التعليمية فقدوه في الناحية التربوية .

أمّا في الإسلام فما جاء عن الله– عز ، وجل– ، وعن رسوله–ﷺ–، وعن سلفنا الصالح –رضي الله عنهم – ، فهو أنّ الضرب وسيلة ناجحة، لكن بحدود، حتى لا يكون ضربًا مبرحًا يشقّ جلْدًا، أو يكسرُ عظمًا، وإنّما يكون بقدر الحاجة.

فقد كان السلف يستعملونه، بل إنّ الرّسول –ﷺ– أمر بالضّرب فقال: "مُروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضرِبوهم عليها لعشر" (١٦٣)، وقال –ﷺ–: "لا يُضرب

---

١٦٣ سنن أبي داود (أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني) ج: ١ ص: ١٨٥ / باب متى يؤمر الغلام بالصلاة / الحديث : (٤٩٥) الناشر : دار الكتاب العربي ــ بيروت .

فوق عشرة أسواط إلافي حدّ من حدود الله" (١٦٤)، بل الله -جل وعلا - أمر بالضرب أيضاً للتأديب في حقّ الزوجات: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ} (النساء الآية ٣٤) فالضّرب وسيلة من وسائل التربية، فللمعلّم أن يضرب، وللمؤدّب أن يضرب، ولولّي الأمر أن يضرب تأديباً وتعزيراً، وللزوج أن يضرب زوجته على النشور.

وهو كوسيلة تربوية، وتعليمية يستخدم كأداة ردع، وتخويف أكثر من كونه عقوبة لمن يفكر في تجاوز حدوده، أو ترك ما هو واجب عليه ؛ لأن من أمن العقوبة أساء الأدب كما قالوا .ومع إباحة الشارع استخدام الضرب بالشروط المعروفة كوسيلة للتربية والتأديب والتعليم إلا أنه لم يؤثر عن النبي -ﷺ-أنه استخدم الضرب كعقوبة ، فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: " مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-بِيَدِهِ خَادِمًا قَطُّ ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ -" (١٦٥) .

وإنما استخدمه كوسيلة تعبيرية تساعد في تقرير المعاني، وتثبيتها كجزء من العملية التربوية ، والتعليمية في عبقرية تحقق التنبيه للمعنى، واليقظة للحديث، وتشعر المخاطب بالمحبة ، والحظوة لدى المعلم الأمر الذي يسهم في سرعة الفهم ، والاقتناع، ويربط المعنى بهذا الحدث التعبيري الذي يشعر بالخصوصية .،

---

١٦٤ السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي)(مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني) ج : ٨ص : ٣٢٨/ الحديث : (١٨٠٤٤) الناشر : مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد / الطبعة : الطبعة : الأولى ــ ١٣٤٤ هـ .

١٦٥ شعب الإيمان للبيهقي (أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى : ٤٥٨هـ) ج : ١٠ / ص: ٤١٠/ باب في طلاقة الوجه وحسن البشر لمن يلقاه / الحديث (٧٧١٢) تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد / الناشر : مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند / الطبعة : الأولى ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .

ومن ذلك ما ورد عن الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ-ضَرَبَ عَلَى مَنْكِبِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ « أَفْلَحْتَ يَا قُدَيْمُ إِنْ مُتَّ وَلَمْ تَكُنْ أَمِيرًا وَلاَ كَاتِبًا وَلاَ عَرِيفًا » (١٦٦).

تأمل هذا النمط من أسر حواس المخاطب حتى تمام العملية التربوية حيث ضرب على منكب الصحابي، وأتبع هذه الضربة بجملة تداعب النفس بمحبوب مرجو، وهو الفلاح، ولا تخفى هالة الدلالة حول كلمة (أفلحت) من خير وسرور لاسيما، وقد صاغ الفعل في صورة الماضي المحقق بسبق الوقوع في الزمن ، زد على ذلك أن الذي يخبر بالفلاح رسول مجاب الدعوة يتحدث بسبيل الوحي .

وما أجمل تصرُّفهالرقيق في اسم المتعلم حيث ناداه بـ(قُديم) تصغير مقدام الذي يشعر بالعطف، والحنو والتقريب،فهل ينسى الصحابي حرفًا مما علَّمه الرسول- ﷺ- بعد جملة الوسائل التعبيرية التي سبقت المعنى المراد تقريره ؟

---

١٦٦ سنن أبي داود / ج: ٣ ص: ٩٢ / باب العرافة / الحديث : (٢٩٣٥)دار الكتاب العربي ــ بيروت .

رابعًا : من وسائل التعليم النبوي وضع الضد إزاء ضده .

من الوسائل التربوية الناجحة التي وظفها النبي- ﷺ -في العملية التعليمية المقابلة بين الأضداد ليتميز نموذج الخير من نموذج الشر، وتتضح صفات كل ، ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) .[١٦٧]ففي هذا الحديث وضع الرسول -ﷺ- نموذجاً هادياً إلى الخير عن طريق أسلوب المقابلة هو نموذج الرجل الصادق ثم حرك هذا النموذج عن طريق الأفعال المضارعة التي تستحضر الحدث وتصوره (يزال – يصدق – يتحرى – يكتب) وهكذا وصل النموذج متدرجاً في طريق الخير إلى الجنة.

ثم وضع نموذجًا مقابلاً لهذا النموذج في الشر وهو نموذج الكاذب المخطئ ثم حرك النموذج متدرجاً لعاقبته عن طريق الأفعال المضارعة مع ظلال الألفاظ ووحيها (يزال – يكذب – يتحرى – يكتب) حتى يصل لعاقبته إلى النار، والمتأمل للفعل (يزال) يجد فيه إصرار كل نموذج على فعله – والفعل (يكذب) يصور قبح الفعل، والفعل (يتحرى) يصور الكاذب في صورة الباحث المنقب عن الكذب إصرارًا على سوء فعله، والفعل (يكتب) يؤكد العاقبة، ويبين النتيجة.

ووضع النموذج الصحيح بإزاء النموذج الخاطئ يبين المفارقة بين النتيجتين، ويوضح أبعاد الكذب وطريقه وعاقبته تمام الوضوح كما أكد أبعاد الصدق وطريقه وحسن عاقبته. وهذه النماذج صالحة للتعليم ، والتربية في كل زمان ومكان .

---

(١٦٧) صحيح مسلم / كتاب البر والصلة / باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله / حديث رقم٢٦٠٧.

ومن التعليم بطريقة وضع الضد إزاء ضده لكشف خطر الكلمة، وبيان عاقبتها في الخير، وعاقبتها في الشر ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ : (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ).(١٦٨)

خامسًا: من وسائل التعليم والتربية النبويةبناء القدوة والمثل العُليا .

بناء القدوة والمثل العليا من وسائل التعليم والتربية النبوية، فقد ثبت أن الرسول-ﷺ-كان يستخدم النماذج العليا في الفضيلة من صحابته الكرام لإيجاد القدوة والمثل الأعلى ورفعها بين أعين شباب الأمة للتشبُّهِ بها في ضروب الخير ومقاومة الانحراف، وقطع سبل الفساد ومنع الخطأ، أو تصويبه، حتى لا يفقد شباب الأمة في كل زمان ومكان القدوة إلى الخير فمن هذه الأحاديث التي تُعلِّم، وتربي ببناء القدوة والمثل العليا ما روى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ : " إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ "(١٦٩) .

فقد قدَّم الرسول -ﷺ- للقضية التي يريد ترسيخها، وأرصد للمعنى المراد بقوله (إن لكل أمة أمينًا)، ثم جاء النداء في قوله (أيتها الأمة) بغرض التخصيص للأمة الإسلامية بأن أمينها أبو عبيدة قال الإمام العيني :"أيتها الأمة: صورته صورة النداء لكن المراد منه الاختصاص، أي: أميننا مخصوصين من بين الأمم أبو عبيدة.. والأمانة مشتركة بين أبي عبيدة وغيره من الصحابة، لكن المقصود بيان زيادتها في أبى عبيدة".(١٧٠)

والرسول-ﷺ- إذ يرفع من سيدنا أبي عبيدة أميناً للأمة يضع في أعين شبابها نموذجًا يقتدى به حتى لا يضل الشباب وراء نماذج هدامة تجعل منه معول هدم

١٦٨صحيح البخاري / ج ٨/ ١٢٥/ كتاب بدء الوحي / بَابٌ حِفْظِ اللِّسَانِ / الحديث (٦٤٧٨) .
(١٦٩)صحيح البخاري / جـ : ٥/ صـ : ٣٢/ كتاب فضائل الصحابة / باب مناقب أبى عبيدة بن الجراح / حديث رقم٣٧٤٤.
(١٧٠) عمدة القاري / جـ١١ / صـ٤٧٣.

للأمة، وقد بنى الرسول-ﷺ- كثيرًا من هذه النماذج للهداية في كثير من دروب الخير كالرحمة والشدة في القيام بأمر الله والصدق وشدة الحياء والعلم وغيرها.كما ورد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ- : " أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيٌّ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ" (١٧١).

وفي غزوة (ذي القرد) في قصة سلمة بن الأكوع، وبلائه الحسن فيها مع أبي قتادة قال سلمة : (...فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ-« كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ ». قَالَ ثُمَّ أَعْطَانِى رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ- سَهْمَيْنِ سَهْمُ الْفَارِسِ وَسَهْمُ الرَّاجِلِ فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا ثُمَّ أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ-وَرَاءَهُ عَلَى الْعَضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ)(١٧٢)

فقد رفع الرسول -ﷺ- من أبي قتادة مثلًا أعلى في البطولة والفروسية ، ومن سلمة ابن الأكوع مثلًا أعلى في الرجولة -رضي الله عنهما – ثم أتبع التكريم المعنوي بتكريم مادي تشجيعًا وتقديرًا للكفاءات فأعطاه سهمين .

كما بنى الرسول -ﷺ- القدوة والمُثل العليا للنساء في الفضائل ومكارم الأخلاق فيما رواه سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ-يَقُولُ:"نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ أَحْنَاهُ عَلَى طِفْلٍ وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ" (١٧٣)

والحديث يرفع نماذج عُلا وقدوة للنساء في أخص مهام المرأة في الإسلام، وهي

---

(١٧١) سنن الترمذي / جـ : ٥/ صـ : ٦٦٤/ كتاب المناقب/ حديث رقم :(٣٧٩٠)ت: أحمد محمد شاكر وآخرون/ دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(١٧٢)صحيح مسلم / جـ ٥ / صـ ١٨٩ / كتاب الجهاد والسير/ باب غزوة ذي قرد وغيرها حديث رقم (٤٧٧٩).

(١٧٣) صحيح البخاري /جـ : ٤/ صـ : ٢٠٠/ كتاب أحاديث الأنبياء / باب قوله :{إذا قالت الملائكة}/ حديث رقم٣٤٣٤.

تربية الأطفال، وما ينبغي أن تكون عليه من شفقة ورحمة ورعاية وتعليم لأطفالها الذين هم عدة الأمة في مستقبلها وكذا في رعاية الزوج والتخفيف عنه والصبر على ظروفه وحفظ ماله وعرضه وحسن التدبير لبيته.

والمتأمل لهذا الحديث يجد أنه يسبر غور جانب خطير من جوانب حماية الأسرة، والذي بدونه يكون الانحراف في سلوك الأبناء وإجهاد الزوج، ودفعه لسبل الحرام، وتفتت الأسرة التي هي نواة المجتمع الأولى.

ومن ذلك ما روي عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ - ﷺ - قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- :"فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ ، كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ"(١٧٤) وعلى ذلك فالتركيز على إبراز القدوة الصالحة والمثل الأعلى في إطار التربية والتعليم يضمن تحقيق غاية العملية التربوية والتعليمية ، وحماية الشباب في عصر طغت فيه المادة وتراءى للشباب سراب مضلل من الدعاة إلى الفساد والنماذج الهدامة التي وُضِعت بين أعين الشباب حتى تقتلعه من جذوره، وتبتعد به عن دينه؛ فيسهل على الأعداء افتراسه كما يفعل الذئب بشاردة الغنم.

(١٧٤) صحيح البخاري /جـ :٤/ ٢٠٠/ كتاب أحاديث الأنبياء / ب قوله :{إذا قالت الملائكة}:/ حديث رقم٣٤٣٣.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خير البريات وآله ، وصحبه، ومن تبعهم بإحسان حتى الممات . وبعد ..

فإن المنهج الذي أعده خبير بدقائق خلقه، ومحيط بدواخلهم على اختلاف زمانهم ومكانهم وصفاتهم وكل ما يتصل بهم هو المنهج الأمثل لحياتهم ، والذي طبقه عمليًا رسولهم -ﷺ-في مجتمع من أشد المجتمعات عصبية وجاهلية وطيشًا ، فصنع من أفرادها نماذج قادت الأمم من غياهب الجور إلى دروب النور .

وتحويل أمة بهذه الصفات إلى هذه الحالة تأكيد لصلاحية المنهج التعليمي التربوي النبوي لجموع البشر على اختلافهم؛ لأنه المنهج نفسه الذي ساس به أصحابه- رضوان الله عليهم - والتابعون أهل البلاد التي فتحوها، فنجحوا نجاحًا غيَّر عادات هؤلاء السيئة ، وتقاليدهم وديانتهم ولغاتهم إضافة إلى نقل علوم المسلمين إليهم حتى غدا فضل الإسلام على القاصي والداني أنكر هذا من أنكره، وأقر به من أقر .

وقد بدا خلال الدراسة أمور منها :

- ضم البيان النبوي وسائل تعليمية لا حصر لها عالجت مختلف مشكلات تعليم الأفراد والجماعات المتوسطة والكبيرة ، وحققت نتائج تستحق الوقوف عليها طويلًا بالدراسة والبحث حتى نحسن الاستفادة منها فيما يعتري العملية التعليمية اليوم من مشكلات مع دمجها مع ما توفَّر لهذا العصر من وسائل أخرى أفرزتها الخبرة البشرية في مختلف العصور .
- عمق الأثر المترتب على الأساليب النبوية في التربية والتعليم إضافة إلى يسرها ، وتوفرها للجميع .
- في الطرائق النبوية البسيطة في البيئة ذات الأثر العميق تدريب عملي على استغلال إمكانات البيئة المتاحة في التعليم وفق المقدرة دون تكلف .

- راعى الأسلوب التربوي التعليمي في البيان النبوي الجانب النفسي للمتعلم بما يجعل العملية التعليمية أمرًا محببًا إلى النفس تقبل عليه،ولا تنفر منه.
- تتبنى الأساليب النبوية إشعار المتعلم بقيمته ، وإدراكه لقيمة ما هو فيه ببيان قيمة العلم؛ لأن من عرف قيمة ما يطلب هان عليه ما يبذل .
- إشعار المتعلم بمحبة المعلم له، وتَأَلُّفِهِ، وإظهار المودة، والحرص على مصلحته، وهو ما ينعكس على المتعلم بسرعة التجاوب الحي الفعَّال مع المعلم والتمسك بما علم .
- من أعظم الأمور التي نتعلمها من الأساليب النبوية في التربية والتعليم ضرورة توفر عنصر الإخلاص لدى المعلم من جهة ببذل كل ما في وسعه لإنجاح العملية التعليمية تقربًا لله، ومن جهة المتعلم باستنفاذ الطاقة وصرف الجوارح في التفاعل مع المُعلِّم والصبر على طلب العلم .

بالنظر في الوسائل النبوية في التعليم والتربية يتبين الاتي :

بعض الوسائل أدت مهمة التمهيد قبل العملية التعليمية، وسبقت تقرير المعنى المراد لتفريغ وجدان المتعلم، وصرف جوارحه تجاه المعلم، وقطعه عن شواغله كالضرب على المنكب، وتقريب المتعلم والإقبال عليه، أو البداية بعبارة تحمل شحنة وجدانية كما مر .

فمن أهم الوسائل المساعدة في العملية التعليمية العناية الشديدة بالمتعلم وإظهار الحفاوة به والإكرام له وإظهار المحبة التي تشعره بالخصوصية والمكانة لدى المعلم الأمر الذي يجعله أحرص على كل حرف يطرق سمعه ، والأمثلة على ذلك كثيرة والأمر فيه بيِّن .

كما تضمنت الوسائل النبوية في التعليم وسائل توضيحية لتقريب المعاني وجمع أطرافها وكشف غوامضها كالتشبيه والرسم وغيرهما .

أيضًا تضمنت أساليب ووسائل تعمل على تثبيت المعنى بعد تقريره بحيث يبقى أثره في الوجدان، وينعكس على الجوارح؛ فلا ينسى .

بساطة الأساليب ويسرها وصلت بالمعاني إلى مختلف الأفهام مع تفاوتها في الذكاء نظرًا لارتباطها ببيئة المتعلمين ، ومعايشتهم لها، وتلبسهم بها .

وأخيرًا يوجه الباحث على ضوء هذه الدراسة توصية للباحثين في مجال التربية والتعليم إلى المنهج النبوي الذي يضمن سلامة دين الناس ودنياهم.. المنهج الذي يربي، ويعلم لاسيما بعد انصراف أكثر المؤسسات التعليمية التي تعتمد على نظريات الغرب في التعليم إلى إغفال جانب التربية في مقابل التركيز على التعليم فقط الأمر الذي ينتهي إلى فقدان الاثنين .

وفي الختام نحمد الله على ما وفَّق وهدى ، ونستغفره عما وقع من ذلل أوتقصير أو تحميل لكلام النبي-ﷺ- ما لا يحتمل، فهذا جهد بشري يهفوا إلى الكمال، وهو إلى النقصان أقرب، والبيان النبوي أجل ، وأعظم ، والله ولي التوفيق .

الباحث

فهرس المراجع

١- الإتقان للسيوطي / تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم / ط. دار التراث.
٢- أثر البيئة في اتساع مدلول التشبيه)(دراسة تطبيقية في الحديث النبوي) د/ناصر راضي الزهري إبراهيم / بحث منشور في مجلة كلية الآداب / جامعة سوهاج / الجزء الأول العدد ٢٩- لسنة ٢٠٠٦م .
٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم/ المؤلف : محمد بن محمد العمادي أبو السعود/الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٤- أساس البلاغة للزمخشري / طبعة ثالثة / ١٩٨٥م / ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٥- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم / د: صبَاح عبيد دراز / الطبعة الأولى /١٤٠٦ ه/ ١٩٨٦م مطبعة الأمانة – مصر.
٦- الأساليب النبوية في معالجة أخطاء الناس للشيخ محمد صالح المنجد / ط. دار الفجر.
٧- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر – ت محمود شاكر سنة ١٤١٢ هجرية سنة ١٩٩١ م.
٨- الأصول في النحو لابن السراج / ت : عبد الحسين القتلى / الطبعة الثالثة سنة : ١٩٨٨ م / طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت.
٩- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني/ دار الفكر – بيروت / الطبعة الثانية.
١٠- الإيضاح للخطيب القزويني / ت:محمد عبد المنعم خفاجي/ الطبعة الثالثة / دار الجيل – بيروت.
١١- البرهان للزركشي ت : محمد أبو الفضل إبراهيم / ط : دار المعرفة – بيروت – سنة : ١٣٩١ هـ.

١٢- بلاغة الرسول -ﷺ- في تقويم أخطاء الناس وإصلاح المجتمع (دراسة في الصحيحين) د : ناصر راضي الزهري إبراهيم / الطبعة الأولى سنة ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م / دار البصائر – القاهرة .

١٣- بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث/ المؤلف : الحارث بن أبي أسامة / الحافظ نور الدين الهيثمي /ت : د. حسين أحمد صالح الباكري/ الناشر : مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة /الطبعة الأولى ، ١٤١٣ – ١٩٩٢.

١٤- التجربة الابداعية في ضوء النقد الحديث – دراسات وقضايا/ د – صابر عبد الدايم / الطبعة الاولى سنة ١٤٠٩ هـ ١٩٩٠م مكتبة الخانجي القاهرة.

١٥- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي / المباركفوري / دار الكتب العلمية – بيروت .

١٦- التصوير البياني(دراسة تحليلية لمسائل البيان) د: محمد محمدأبو موسى/مكتبة وهبة /الطبعة الرابعة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م.

١٧- التوقيف على مهمات التعاريف /محمد عبد الرؤوف المناوي / ص :٣٣٥ ت : محمد رضوان الداية /الطبعة الأولى سنة : ١٤١٠ هـ / دار الفكر بيروت.

١٨- الجني الداني في حروف المعاني للحسن بن القاسم المرادي /ت د: فخر الدين قباوة الأستاذ محمد نديم فاضل/الطبعة الأولى/١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م/ دار الكتب العلمية .

١٩- حاشية الدسوقي / ضمن شروح التلخيص / طبعة دار الكتب العلمية / بيروت لبنان.

٢٠- حاشية السندي على النسائي لأبى الحسن السندي / تحقيق عبد الفتاح أبو غدة / – ط ثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م – طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب.
٢١- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية / د.كمال عزالدين / الطبعة الأولى /١٤٠٤هـ ١٩٨٤م/ ط.دار اقرأ- بيروت.
٢٢- الحيوان للجاحظ (أبي عمر بن بحر الجاحظ) ت عبد السلام محمد هارون /ط دار احياء التراث العربي سنة ١٣٨٨هـ١٩٦٩م.
٢٣- الخصائص لابن جنى(أبي الفتح عثمان بن جنى) / ت محمد على النجار – ط المكتبة العلمية – بدون.
٢٤- الدعوات الكبير (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي)المتوفى : ٤٥٨ هـ / المحقق : بدر بن عبد الله البدر/الناشر : غراس للنشر والتوزيع – الكويت / الطبعة : الأولى للنسخة الكاملة ، ٢٠٠٩ م .
٢٥- ديوان ذي الرمة / د. واضح الصمد ط دار الجيل بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤١٧ هـ سنة ٩٩٧ م
٢٦- سنن ابن ماجة / لمحمد بن يزيد أبي عبدالله القزويني / المقدمة /تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / الناشر : دار الفكر – بيروت.
٢٧- سنن أبي داود / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد/ تعليق كمال يوسف الحوت / طبعة دار الفكر.
٢٨- سنن الترمذي الجامع الصحيح / تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون / ط – دار إحياء التراث العربي/بيروت.
٢٩- سنن الدرامي / المقدمة / ترقيم العالمية .
٣٠- السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي)(مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني

الشهير بابن التركماني) الناشر : مجلس دائرة المعارف حيدر آباد / الطبعة : الأولى ــ ١٣٤٤ هـ .

٣١- سنن النسائي / (تحقيق عبد الفتاح أبو غدة) طبعة دار إحياء التراث العربي.

٣٢- شرح صحيح مسلم للنووي /ترقيم. محمد فؤاد عبد الباقي ط. دار إحياء التراث العربي/ ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

٣٣- شروح التلخيص/ طبعة دار الإرشاد الإسلامي- بيروت.

٣٤- شعب الإيمان للبيهقي (أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى : ٤٥٨هـ) تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد / الناشر : مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند / الطبعة : الأولى ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣٥- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان.(محمد بن حبان أبو حاتم البُستي (المتوفى : ٣٥٤هـ) /المحقق : شعيب الأرنؤوط. الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة : الثانية ، ١٤١٤ه - ١٩٩٣ م .

٣٦- صحيح البخاري / ديب البغا /دار ابن كثير / سنة : ١٤٠٧ هـ١٩٨٧ م.

٣٧- صحيح مسلم / ت : محمد فؤاد عبد الباقي طبعة / دار الجيل - بيروت.

٣٨- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز / يحيي بن حمزة العلوي / دار الكتب العلمية - بيروت-١٤٠٢ هـ ١٩٨٣م.

٣٩- عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (ت ٨٥٥)/ ضبط :عبد الله محمود محمد عمر/ منشورات محمد علي بيضوت/ دار الكتب العلمية / بيروت - الطبعة الأولى /١٤٢١هـ ٢٠٠١م .

٤٠- عون الباري لحل أدلة البخاري / للإمام أبى الطيب صدقي حسن على الحسيني البخاري / ط. دار الرشيد / حلب/ سوريا .
٤١- عون المعبود شرح سنن أبي داود (محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب) الطبعة الثانية / دار الكتب العلمية / بيروت / سنة : ١٤١٥ هـ.
٤٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني / طبعة دار المعرفة – بيروت / سنة : ١٣٧٩ه .
٤٣- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي / الطبعة الأولى/ سنة : ١٣٥٦هـ المكتبة التجارية الكبرى مصر.
٤٤- كتاب العين / ت : د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي / لناشر : دار ومكتبة الهلال .
٤٥- لسان العرب / المؤلف محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري المصري / دار صادر – بيروت –الطبعة الأولى .
٤٦- مجلة الرسالة – مقال بعنوان :بلاغة الرسول – ﷺ – العدد ٧٦٠ لسنة ١٩٤٨م .
٤٧- مدارج السالكين لابن القيم /ت : محمد حامد الفقي / دار الكتاب العربي – بيروت /الطبعة / الثانية/١٣٩٣هـ١٩٧٣م.
٤٨- مراجعات في أصول الدرس البلاغي د/ محمد محمد أبو موسى/ الطبعة الأولى- ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م-مكتبة وهبة- القاهرة .
٤٩- المزهر في علوم اللغة للسيوطي/ ت: فؤاد علي منصور/الطبعة الأولى ١٩٩٨ م / دار الكتب العلمية- بيروت.
٥٠- المستدرك على الصحيحين /المؤلف : محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري / ت : مصطفى عبد القادر عطا / دار الكتب العلمية – بيروت/الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠.

٥١- مسند ابن الجعد/ المؤلف : علي بن الجعد بن عبيد أبو الحسن الجوهري البغدادي / تحقيق : عامر أحمد حيدر/ الناشر : مؤسسة نادر – بيروت/ الطبعة الأولى ، ١٤١٠ – ١٩٩٠.

٥٢- مسند أحمد / شرحه ووضع فهارسه :محمود محمد شاكر – المكتب الإسلامي – ط ٢ – سنة ١٣٩٨هـ .

٥٣- مسند البزار (البحر الزخار) لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار – المتوفى : ٢٩٢ هـ المحقق : محفوظ الرحمن زين الله ،وآخرون / الناشر : مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة / الطبعة: الأولى ١٩٨٨م .

٥٤- مسند الشهاب / المؤلف : محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي / ت : حمدي بن عبد المجيد السلفي / الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت / الطبعة الثانية ، ١٤٠٧ه – ١٩٨٦م.

٥٥- مسند الشافعي (محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي) الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت.

٥٦- معالم السنن (شرح سنن أبي داود) لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي البستي (٢٨٨ هـ) الناشر : المطبعة العلمية – حلب / الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢ م.

٥٧- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم / الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت .

٥٨- من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي / د. فتحية محمود فرج العقدة– دار الطباعة المحمدية .

٥٩- مناهل العرفان في علوم القران للشيخ / محمد عبد العظيم الزرقاني / ت : أحمد بن على / ط: دار الحديث / سنة : ١٤٢٢ / ٢٠٠١ م.

٦٠- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج / للنووي / دار إحياء التراث العربي – بيروت / الطبعة الثانية ، ١٣٩٢ه .

٦١- موطأ الإمام مالك / ت : محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي – مصر .

٦٢- النهاية في غريب الحديث والأثر) أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري/ تحقيق : طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي/ الناشر : المكتبة العلمية – بيروت ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٦٣- وحي الرسالة (فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع والقصص / أحمد حسن الزيات / مطبعة الرسالة – مكتبة نهضة مصر بالفجالة / الطبعة السادسة سنة ١٩٦٣م .